SAIF AL-ADL'S BIOGRAPHY
سيرة سيف العدل
فريق متميزون
E-BOOK
محمود هشام
إبهار

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

<u>انضم الى الجروب</u>

<u>انضم الى القناة</u>

سيرة سيف العدل

محمود هشام

إهداء

" إلى البطل الأول في حياتي دائما..أبي"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة

عزيزي القارئ:

- لتعلم أن كل من سبقونا ومروا بهذه الدنيا قد ماتوا وولوا، وَلَولا أعمالهم لما خُلدت سيرهم، فإن كان التاريخ يكتفي بتسجيل الوقائع والأحداث فالأدب هو المُفسر للظواهر الإنسانية والاجتماعية والراصد لها.

فقط أرجو من الله التوفيق لأنقل لك الحياة في تلك الحقبة التي كُتب فيها أحداث السيرة بالشكل اللائق، لأنها وإن كانت أحداثها سقطت من ذاكرة التاريخ فهي لم تسقط من عيون الأدب.

محمود هشام

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا سقط العدل أمام الفساد فلا محالة من تحول القاضي إلي جلاد

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

نقراتٌ خفيفة عل باب الغرفة ليدخل بعدها السكرتير ويعلمه بحضور ثلاثتهم، فهز رأسه بالموافقة لينصرف ويدخلوا عليه، فرآهم في أبه صورةٍ عكس ما قد تصور فاشتعل غيظه، ثم نظر لهم بتشفٍ ظاهر في نبراته:

- مرحبًا برجال الحكومة، جميل أن تجمعكم الصداقة وعداوتي أيضًا التي سبق وحذرتكم منها.

سكت برهةً وران صمتٌ على المكان، وأخذ نفسًا عميقًا وبتعالٍ شديد وجه إليهم الكلام:

- عمومًا سوف اعتبر أن ما جر قد جر ، والباشوات أتوا لتهنئتي بالمشروع الخيري الجديد، وقد سبق وحذرتكم من عداوتي وأنتم من ركبكم الغرور، أنتم شباب صغير وسأعفي عنكم.

أنه كلماته وراح يعبث في الأوراق التي أمامه انتظارًا لإجابتهم، لكنهم لم يتكلموا وابتسموا بهدوءٍ ثم اصطفوا ككتيبة إعدام تستعد لتنفيذ حكم، فتوسطهم وكيل النيابة وعلى يمينه رئيس المباحث، وعلى يساره الطبيب الشرعى، ثم أخرج ورقة تلا منها الاتهامات التي تم تبرئته منها التي لم يُفلح القانون الأعم في إثباتها.

ظل متكئًا بعضديه على مكتبه ينظر لهم في هدوءٍ، لم يحرك ساكنًا ينتظر فراغهم، فلما انتهوا أخذ يقهقه في هستيريا مصفقًا بانتشاء:

- برافو، برافو يا شُطار، أنا القانون برأ ساحتي، وأنتم من ينوي محاكمتي من جديد، ثم بنبرة حازمة: اسمعوا، ما رأيكم أن أدفع لكم لننهي هذا الأمر؟!

لم يتلق ردًا فألقى دفتر الشيكات بتأففٍ وعاود النظر للأوراق، ففوجئ بقبضة قاسية كادت أن تحطم فكه وعدة أيادٍ ترفعه من ربطة عنقه وملابسه ثم ألقوا به على الأرض فارتج المكان، وأخذ سكرتيره الخاص يدق على الباب ويحاول فتحه بلا جدوى، ثم شرعوا أسلحتهم في وجهه، كان ما يزال يعاني من الدوار من أثر الصدمة لكنها كانت كفيلة لإذابة كبره وغروره.

سمع صوت الطرق المستمر فأمَل بالمماطلة لكسب بعض الوقت وهو يتضرع لهم ويغريهم بالمال ثم يعود فيتوعدهم، إلى أن أخذ يولول ويلطم خديه بصوتٍ مبحوح طلبًا للرحمة مُذكرًا إياهم بكونهم رجال قانون ومدركين لخطورة فعلتهم أمام القانون وأمام ربهم، وأنه مجرد شخصٍ حقير لا يستحق منهم أن يضيعوا مستقبلهم المهني بسببه وأقر بالعديد من الأمور التي تُدينه وتُدين آخرين، سواء كان المحرض عليها أو فعلها بنفسه، ثم أخيرًا بدأ الباب يُبدي شيئًا من الاستجابة لمحاولات الاقتحام لكن رصاصاتهم كانت أسرع، فانطلقت تزغرد في المكان ليرد عليها صوت استغاثته الأخيرة مع صوت تحطم الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الأول

حال الدنيا

(1)

- حرس ســــــــــلاح!

ارتفع النداء مكرورًا ممطوطًا عاليًا أعقبه صوت فرقعات الأيدي على السلاح، ودقات كعوب الأحذية الثقيلة مُعلنةً وصول السيد اللواء "كمال جعفر" أخطر رجلًا تولى إدارة المباحث الجنائية.

بدا أنه في عجالةٍ من أمره بطريقةٍ ملحوظة، يخطر بخطواتٍ سريعة نحو مكتبه، ولم يكد يصل إلى باب مكتبه وقبل دخوله طلب من جندي الخدمة المتواجد على بابه استدعاء "زكريا، ومؤمن" في التو واللحظة.

ذهب الجندي فورًا لتلبية الأمر وسرعان ما عاد إليه يخبره بأنه لم يجدهما، فاغتاظ بشدة فاتصل بالهاتف الداخلي فلم يحصل على أي إفادة، وكان قد لجأ سابقًا لهواتفهما الشخصية لكنها مغلقة، فخرج بنفسه للبحث في مكاتب المبنى وطرقاته الواسعة.

دلف إلى إحدي الغرف وفتحها بعصبيةٍ شديدة كمن يداهم وكرًا للمخدرات حتى إن جميع الضباط من هم أقل رُتبةً منه فوجئوا بدخوله فهبوا لتحيته، فأشار لهم بالجلوس وسألهم إن كان أحدهم قابل الضابط "زكريا" فأجاب جميعهم بالنفي، فخطا نحو باب الخروج ولم يكد يتحرك إلا وعاد صائحًا كمن تذكر أمرًا، وبعصبيةٍ آمرة:

- أحضروا لي زكريا حالًا، تحركوا.

فخرجوا يتدافعون هربًا من غضبته المفاجئة.

مشكلة زكريا الوحيدة أنه يكره الجلوس خلف المكاتب، فإن لم يكن في مأمورية ما، فتأكد أن طبيعته النشيطة هي التى تدفعه للحركة الدائبة المستمرة في طرقات وغرف المبنى، وأحد الأماكن المفضلة عنده هي مكتب صديقه "مؤمن" الذي تجمعهما صداقة قديمة وطد أواصرها تكامل المجال المهني من خلال كشف غموض عدة جرائم، "مؤمن الهواري" أحد أبرز الأطباء الشرعيين المعدودين والمشهود له بالكفاءة والنزاهة المهنية برغم حداثة سنه، لكن اسميهما لمعا معًا بالصحف في كشف غموض العديد من جرائم القتل إلى أن تم نقله مؤخرًا إلى وظيفة إدارية كنوعٍ من العقاب الإداري.

كان قد رفض الضغط الذى تعرض له أثناء كتابة تقريره في إحدى الجرائم، لكنه أصر على عدم تغيير الصياغة بالرغم أنها لا تختلف كثيرًا بشكلٍ واضح لكنه استشف أنها سوف تؤثر بشكلٍ أو بآخر على سير القضية، لأنه علم أن بإمكانهم إحداث ثغرة قانونية من خلاله وهذا ما حدا به للرفض، ثم لما زاد الضغط عليه اضطر لفضح ما يجري للصحف، فكان من نصيبه النقل التعسفي إلى وظيفة

مكتبية مع إضافة ملحوظة بملف خدمته أنه قام بكتابة تقرير فيه تحيز واضح لأحد الأطراف، مما حدا بالوزارة أو بمعنى أصح ترتأي رفض كافة الالتماسات المقدمة لكي يعود لمكانه، لكن هذا لم يمنع زكريا من المرور على صديقه المغضوب عليه واحتساء الشاي سويًا رغم أن زكريا يختلف تمامًا عن مؤمن في هذه النقطة، فزكريا مُنفذ جيد للأوامر وهذا ساعده كثيرًا في الارتقاء المهني السريع وهكذا جرت الأمور فالصداقة تجمع الثنائي الرائع وما زالا يتشاوران في كافة الأمور، فقط هذه

المرة لم يكن بصحبته ولم يعرف السيد اللواء كيف يتوصل إليهما، لكن الاتصال الذي ورده في الصباح وحالة الاستنفار الحاصلة بالوزارة لم تنبئ عن خيرٍ فأجبره ذلك على ترك مكتبه للبحث بنفسه عنهما، ولما لا وهما الجواد الرابح الذي يراهن على نجاحهما، لكنه في البداية عليه أن يتدبر كيفية إعادة مؤمن إلى مكانه بعدما تم نقله بشكلٍ مُهين وقد يرفض الولد العودة، كان يُردد ذلك بداخل نفسه، وهو يفكر في حل لهذه المُشكلة.

ظل السيد اللواء يُحدث نفسه في طريق العودة إلى مكتبه بأن المسألة لن تكون صعبة بالنسبة لإعادة مؤمن لمكانه مرة أخرى فالوزير لن يمانع وسوف يُحادث وزير العدل في المسألة، المهم ألا يمانع الولد في الرجوع، ثم زمجر بصوتٍ مسموع:

- لكن لماذا يمانع بالأساس؟

ألقى التحية على أحد اللواءات ثم فتح جندي الخدمة له باب غرفته، وعاد لأفكاره التي خرجت بصوتٍ أوضح مع حركات يديه المتوترة كمن يحادث شخصًا خياليًا فقط هو من يراه فظل يطمئنه بأن المصلحة مشتركة ومؤمن لن يرفض، لكن تكمن المشكلة في لسانه المنفلت الذي يصنع الشوشرة ويثرثر كثيرًا لدى الصحف، عمومًا لن أسمح بتكرار هذه المهزلة سوف أكون أكثر حرصًا، سيكون زكريا هو رهينتي التي أسيطر بها على مؤمن، وهو بالتأكيد لن يرضى بالأذية أو الضرر لأعز أصحابه، ثم ابتسم لنفسه وفرك يديه وبدأ يُمنيها بالحصول على الترقية التي تليق به بعد كل هذه السنوات فقد كان أولى بهم أن يسندوا إليه حقيبة الداخلية، ثم تنهد بحنق وقال لنفسه: "عمومًا الدنيا حظوظ" وعليه أن يغتنم هذه الفرصة فإن لم يكن الوزير فيكفي أن يكون مساعده بمنطق نصف العمى.

ثم عادت إليه هواجسه مرةً أخرى تحدثه بأن هذه الجريمة ليست عادية لأن القتيل من الصفوة، أي أن الجريمة سوف تتحول لقضية رأي عام ومهما حاولوا التكتم فلابد للصحافة أن تشتم رائحة الخبر، والمشكلة الأكبر المكان الذى وُجدت فيه جثة القتيل بأحد البيوت القديمة في قبوٍ أسفل البيت، وقد تبين بالفحص المبدئي أن المبنى أثري وتوجد به عدة محتويات أثرية، فتأفف السيد اللواء من هذه الجريمة التي يتوقع أن تجر عليه الكثير من المتاعب ولعن اليوم الذي أصبح فيه رئيسًا لمباحث الجنايات، ولعن القتيل الذى كان مرشحًا لنيل منصب وزير بالحكومة والحكومة نفسها، لأن غالبًا من تجرأ على قتله سيكون شخصًا آخر من الصفوة لا يقل عنه سطوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

يجلس زكريا متأففًا بادٍ عليه الغضب وينتظر الشرارة التي تشعل الانفجار، وتحاول زوجته تلطيف الوضع، لكن ما دفعه للانفجار أنه وبعد انتظاره ساعتين من أجل تقديم أوراق ابنه للمدرسة للدخول في المستوى التمهيدي واحتماله للتعقيدات التي لا داعٍ لها، من عمل مقابلة شخصية للأب والأم وإجراء اختبارات لهما مع الابن من أجل قبول أوراقً الطفل، فاضطر للحصول على إجازة وفي النهاية يدخل أحد الأباء الذين أتوا من بعدهم قبلًا منهم.

حاولت زوجته جاهدة مرة أخر لكنه كان أشبه بكتلة من الحمم الفائرة، فأفرغ شحنته في وكيلة المدرسة شارحًا لها أنه لديه الكثير من المشاغل مثل من سبقوه وإن كان والد الطفل الآخر طبيبًا فهو أيضًا مهنته تحتاج منه التواجد باستمرار في محل عمله، فحاولت أن تعتذر عن الخطأ الحادث والتأخير الغير متعمد، لكنه كان بلغ منتهاه واحتد صوته:

- يا فندم هذا عيبٌ لقد تم تحديد موعد سابق، والولد سوف يدخل رياض الأطفال وليس كلية الشرطة.

عبثا حاولت الوكيلة تهدئته لكنه كان كقاطرة تدهس كل ما يقابلها ويبدو أن هذا شجع بقية أولياء الأمور المستائين، فخرجت مديرة المدرسة لتستوضح الأمر وبعد الكثير من الاعتذارات والأسف وخاصةً عندما تذكرته، فهو واحدٌ من طلابها المتميزين ووالدته كانت زميلة لها فتم قبول أوراق ابنه بدون أي عقبات أو مقابلات رسمية إكراما للمعرفة القديمة، لكن الفرحة لم تدم طويلًا فما إن انتهى هذا الصخب إلا ودق هاتفه الشخصي بالرقم الخاص وكان المتصل مؤمن ويبدو أنه لم يستيقظ بعد من نومه فصوته كله وخم:

- السلام عليكم، يا أخي لم تقفل هاتفك الآخر، اللواء كمال جعفر قد أقام الدنيا ولم يُقعدها بحثًا عنا حتى أنه أحضر رقم هاتفي الأرضي واتصل عليّ.

شعر زكريا بالانقباض وأخذ يتبرم في حنق لأنه لم يكد يحصل على الإجازة لتأتي مكالمة مؤمن لتدمر له اليوم بأكمله وقد وعد زوجته وابنه بالخروج معًا، لكن لا مجال للتسويف، اتصال كمال جعفر لا يعني سوى أن كارثة قد حلت وهو بمثابة الساحر الإفريقي صانع المعجزات.

يمر زكريا على منزل مؤمن ليذهبا سويًا إلى مبنى الأدلة الجنائية ويبدو على وجه زكريا التبرم الشديد والقلق، فيحاول مؤمن تهدئة الموقف معتذرًا له:

- سامحني يا صديقي أنا متأسف، لكنه اتصل على الهاتف الأرضي و...

لم يكمل مؤمن كلامه بسبب ابتسامة زكريا الناضحة بالمرارة ثم:

- المشكلة تبدأ من اتصاله عليك لأن هذا يعني أن هناك مشكلة عويصة واللواء كمال محتاج لنا، أنا أول من يفرح برجوعك لمكانك الطبيعي بدلا من عد الجثث في المشرحة، لكن كمال جعفر برغم إنه شريف لكنه شرير إلى أبعد حد.

حك مؤمن رأسه وبدا كمن لم يستوعب كمًا كبيرًا من المعطيات فالتفت له قائلًا:

- لست أفهم!

جز زكريا على أسنانه بغيظ ثم قال له:

فضحك مؤمن بشدة على كلامه وعلق:

- حسنا يا سيادة المفتش "هركيول بوارو"1.

لكن زكريا نظر له بجديةٍ شديدة فتلاشت الضحكة من على وجهه:

- اللواء كمال جعفر يختلف عن الجميع، أتفهم ما أعني إنه شرير لأنه على استعداد كامل لبيع أبيه من أجل ترقية يحظى بها، أظن هكذا اتضحت لك الصورة.

همهم مؤمن بفهم الآن بعدما استوعب الصورة كاملة وبدأت خلايا الفهم عنده تعمل بالطاقة الفعلية فما أحوج كمال جعفر لهما، إذن فالمسألة لا تعد أكثر من صفقة يعود هو إلى مكانه والسيد اللواء يحصل على ترقية تليق بملفه المشرف كباقي زملائه، لهذا سيكون زكريا شريكه بهذه القضية مثل الأيام الخوالي فيكون بمثابة اللجام أو هو الرهينة التي سيهدده بها:

- إنه فعلًا شرير!

ارتفع صوت أفكاره أثناء ترديد هذه العبارة حتى أن زكريا ظنه يحادثه لكن مؤمن التفت له مبتسمًا بهدوء:

- لا تبالِ بما أفعله، فما زال عقلي نائمًا لكنني أحيانًا يا صديقي لا أقدر على فهمك.

فابتسم له زكريا ثم قال لمؤمن:

- فرصتك تدق بابك، وأرجوك ألا تضيعها.

لمعت عينا مؤمن ونفض رأسه، لكن زكريا كان يعلم تمامًا كيف يفكر مؤمن وأنه لن ينفذ نصيحته أو على الأقل سيحاول إرضاءه لفترة ثم يعود لما كان، ولم يعد هناك مجال للمزيد من النقاش فقد وصلا إلى المبنى وعليهما أن يعرفا المفاجأة التي بانتظارهما، لكن قبلها أخذ زكريا يوصيه بأن يكون هادئًا ويقبل أي عرض من كمال جعفر.

دق جندي الحراسة على الباب ثم فتح فُرجة منه ليمطّ رقبته للداخل:

- حضرة الظابط زكريا، والدكتور مؤمن.

فأشار له في صمتٍ بأن يسمح لهما بالدخول، ثم نادى عليه مرة أخرى:

- دعهم يدخلون، لا تنس قهوتي وأحضر لهما عصير الليمون.

بدأت خلايا الفهم الرمادية عند مؤمن بالعمل بطاقتها القصوى وفهم أنها قضية كبيرة وتخص الرأي العام بعد هذا الاستقبال الحافل، على الجانب الآخر بدأ زكريا في تقدير حجم خطورة الموقف وأن

المراسم الفخمة تعقبها مصيبة ضخمة وعلى الساحر الإفريقي أن يستعد بكراماته وإلا طارت رقبته وصار مصيره مثل مؤمن.

جلسا في هدوء ينتظران الليمون وأن يبدأ السيد كمال بالكلام، لكنه تشاغل بالأوراق التي على مكتبه وكأنه نسيهما فهم مؤمن الحيلة النفسية التي يستخدمها لذلك لم يهتم ليلفت انتباهه، ثم دق الباب وحضرت القهوة والليمون.

فبدأ في الشرح وعرض بعض الصور لمكان وظروف وملابسات الحادث حتى قاطعه مؤمن وطلب منه الاستئذان فهو لم يعد الطبيب الشرعي وهو الآن يشغل وظيفة إدارية، فابتسم السيد اللواء وبادره بصوتٍ حاسم لا يقبل النقاش:

- يا ابني سوف تعود لمكانك الطبيعى مُعززًا مُكرمًا، لأننا بحاجة إلى طبيب شرعي يمتلك موهبتك وستكتب التقرير المناسب دون أي ضغوط، أظن واضح؟.

كان الرد القاطع والمباغت بنفس الوقت يحمل الكثير ورائه لذا لم يقدرا على توقعه ويبدو أنه قد رتب للمسألة جيدًا وتوقع خطواتهما، لذا لم يسمح لهما بأي احتمال للمناورة، لذا أصبح تواجدهما بلا معنى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

التحرك في شوارع عاصمة مثل القاهرة في وقت الذروة في أشهر الصيف هو أحد أنواع العذاب، فهو مثل تدفق الدماء داخل شرايين متصلبة، مدينة أصابها الوهن وقتلها الإهمال، لكنها مع ذلك ما تزال تحتفظ بسحر غريب لعله عبق التاريخ، فإذا بزكريا يزمجر ويطلق آلة التنبيه ردًا على مؤمن.

- لترحمنا قليلًا من نظرياتك وفلسفاتك.

فابتسم مؤمن لأنه يعرف صديقه عندما يضيق ويزمجر فهذا يعني أن بداخله الكثير من المخاوف، كانت مخاوف زكريا نابعة من تدمر الأدلة في موقع الجريمة بسبب جهل بعض صف الضباط، وفي أحيانٍ أخرى التعمد، كما أن حرارة الجو التي اشتدت بشكل مفاجئ لا تنبئ بخيرٍ وهو يخشى أن تبدأ الجثة بالتحلل وهو في أشد الحاجة لأبسط التفاصيل.

تنفس كلاهما الصعداء بعدما وصلا إلى مسرح الجريمة ووجدا كل شيءٍ على ما يرام لأن أحد صف الضباط كان متيقظًا وقام بعمل اللازم، وحين علم بقدوم الطبيب مؤمن زادت درجة الاهتمام.

نظر زكريا إلى صف الضابط وابتسم له لأنه يعلم أن الجميع ينظر إلى مؤمن على أنه بطل، ثم بصورة درامية قد تثير الضحك أشار إلى جثة المجني عليه قائلًا:

- هذا حال الدنيا.

لكنه فوجئ بمؤمن يبتسم بهدوء وهو يتفحص الجثة، فقال له:

- ما المضحك بالأمر؟

فقال له:

- إطلاقًا وإنما ما ذكرته فوجئت به منقوش على جدار السرداب وكأنها رسالة ما.

فقام زكريا بهدوءٍ لينظر إلى تلك العبارة المنقوشة على الحائط بشكلٍ بارز بخط كوفي، لم يفلح مر الزمان عليها في محو أثره وأخذ يتحسس العبارات المنقوشة "هذا حال أهل الدنيا، فلا مُلكٌ دائم ولا نعيمٌ مقيم".

يبدو أنه ضغط على النقش بشكل ما، فارتج المكان لدرجة أنهم خافوا أن ينهدم القبو فوق رؤوسهم، أعقبها أصوات زحزحة وغبار كثيف لينشق الحائط كاشفًا عن سرداب سري أشبه بمغارة "علي بابا" تحوي كمًا كبيرًا من الأزياء المختلفة سواء المملوكية أو العثمانية، وما يمثل عامة المصريين والمارة بالقاهرة من تجار مغاربة وشوام ومن أهل السودان لكنها اهترأت بفعل الزمن، وكأنهم دخلوا إلى متحفٍ حي وبجوار تلك الأزياء مخطوطٌ ضخم.

انتابتهم حالة من الرهبة الممتزجة بالفضول والدهشة لغرابة الموقف، فما جرى لم يكن في الحسبان أو يمكن توقعه، ثم نظرا إلى بعضهما ولمعت عينا زكريا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

زكريا

(1)

كانت الأفكار متضطربة متدافعة بداخلي، فلم أشعر إلى أين حملتني قدماي إلا عندما وجدت نفسي أنزل دركات نفق المشاة، ويمر بجواري مراهقٌ هزيل يمشي بطريقة مستهترة، مرتديًا بنطالًا ساقطًا و يصفف شعره مثل لاعبي الكرة الأوربيين، ويدندن بأغنية يستمع إليها من خلال هاتفه الذكي، ثم توقف ليشعل سيجارته دون أدنى شعور بالمسئولية بأن هذا الدخان قد يتسبب في إصابة أحدهم بالاختناق في ظل التهوية الرديئة داخل النفق، وشعرت بالغيظ يتملكني وكدت أن أفرغ شحنتي وأكافأه بصفعةٍ مدوية، لكن شيء ما دفعني للتراجع، ربما لأنني سلبي!

هذه الفكرة أعادت إلي مخيلتي زكريا فلو كان حاضرًا لفعلها دون تردد، لعل هذا هو الفارق الكبير بين شخصيتينا فهو يتسم بالمبادرة ولا يتردد للحظة، بحضوره القوي تتزاحم الأفكار مرةً أخرى، شعرت بالرغم من ذكائي أنه تم استغفالي، وكمال جعفر نجح في اصطيادي بوضع الطعم المناسب وقد قبلت بالدخول إلي مصيدته بعدما أثار شهيتي للتشفي، لتكون جائزتي العودة لمكاني السابق فأدخل دخول الفاتحين من تحت أقواس النصر، لكن ذهبت السكرة وأتت الفكرة وأفقت من النشوة الخاطفة.

شعرت بالازدراء من رغبتي الصبيانية التي سيطرت على قراري، فتمكن كمال جعفر من استغلالها واستوعبت كلمة مؤمن عن كونه شخصٌ شريرًا، ثم ظهر الكشف الأثري الذي هطل علينا من السماء ليزيد الأمور اضطرابًا وغرابة.

اعترتنا فرحة طفولية عندما قرأنا المكتوب على المخطوطة، فما بين أيدينا أغلب الظن أنه ثروة قومية، شخصٌ واحدٌ قادر على الفصل في أمرها "البروفيسور عبدالحق" وأوكل لي زكريا مهمة زيارته وإعطائه المخطوطة لإبداء الرأي الفني القاطع، لكنني ذكرته بأن هذا أولى به لأنه ابن عم والده فبدأ بالتعلل ببعض الحجج الغير واضحة، وعندما حاصرته اعترف بأنهما علي غير وفاق، ولم يتطرق لا من قريبٍ أو بعيد لشرح أسباب الخلاف الشخصي بينهما، لكنه بنفس الوقت لا يأتمن أحدًا على سرنا غيره، فلو طلب استشارة أي شخص آخر قد لا يكون أمينًا وينشر الأمر، وربما يستولى على المخطوطة، لذلك اشترط تأجيل الكشف عن أي معلومة عن الكشف الأثري لحين الانتهاء من فحص مسرح الجريمة، وهذا زاد من حجم الضغوط علينا، فما بين أيدينا قد يكون كنزًا قوميًا لا يقدر بمالٍ، بالإضافة لوقوعنا تحت ضغط عامل الوقت.

بعد لقائي مع البروفيسور عبدالحق زاد شعوري الداخلي بالغليان، فقد فهمت ما يُقلق زكريا، إنها التغيرات التي بدأت تعتريه ويحسها في شخصيته وتطرأ على تصرفاته، إنه يشعر بالتحول التدريجي لكنه لم يستسلم بعد فما زال يقاوم فكرة أن يصبح نسخة حية جديدة من رئيسه بالعمل اللواء "كمال جعفر" الذى سقط فريسة لإغراءات المنصب، كما سقطت أنا بغفلتي أمام الرغبة بالانتصار على الشامتين، وقد استطاع كمال جعفر التلاعب بي بمنتهى السهولة، لكن ما يقلقني حقًا هو خوفي على زكريا وقد صارحته بهذا في إحدى المرات لكنه اكتفى بهز رأسه والابتسام بهدوءٍ، يبدو أنها كانت بدايات المقاومة الصامتة، شعرت بعدها بالحنق في قلبى يتزايد على كمال جعفر الذي جعلنا نعاني وهو لا يأبه لأي شيءٍ سوى أهدافه، فارتفعت نبرة صوتي:

- اللعنة، كنت قد اعتدت عدّ الجثث.

فردت عليّ الأنا بشتمة نابية وصوت أجش متأفف:

- صراحةً يا مؤمن لقد مللت من العمل الإداري، واحتمالات الهجرة ليست مضمونة، أنا طبيب، ولست طبيبًا عاديًا، وإنما أحد الصفوة وأنت نفسك تعي ذلك جيدًا.

فصرختُ فيها:

- نعم، لكنك طبيب شرعي مما يعني أنك مثل القاضي.

ارتفع صوت همهمتي وحركة يدي أصبحت أكثر عصبية، وأصبح منظري ملفتًا لأعين المارة التي بدأت تتحاشاني، فشعرت بالحرج وأخذت أثب في خطواتي لتفادي هذا الموقف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

عاد زكريا سعيدًا إلى بيته بعدما علم بما فعله البروفيسور عبدالحق الذي قطع بشكلٍ مبدئي بصحة المخطوطة، وأنها فعلًا أثرية لكنه يحتاج للمزيد من التأكيد، لكن السر الحقيقي في سعادة زكريا هو تفهم البروفيسور لوضع زكريا الحساس بعد خلافهما الأخير وأنه لم يتخل عنه عندما طلب منه مساعدته في إخراج ابنه من أحد أقسام الشرطة بعدما تم القبض عليه في إحدى التظاهرات، وقد كان ينوي فعل هذا في صباح اليوم التالي بعدما تهدأ الأمور، لكن طالما أرسل له نسخة فهي خطوة مهمة لإعادة المياه لمجاريها، لكن بداخله شعر بأن هناك ما يُطفئ سعادته ربما هي كلمات مؤمن له عن مخاوفه من تحوله لكمال جعفر آخر، وهذا الصراع الخفي بينه وبين نفسه، ويسترجع كلماته له:

- ما المانع من ذلك يا سيد مؤمن، رضا رئيسي يعني نجاحي كمرؤوس، ثم سيادة اللواء كمال شخصية ناجحة.

ثم يصمت زكريا برهة لأن نفس الصوت الداخلي يرد عليه بهدوءٍ:

- وأنت تعلم جيدًا بتاريخه والسر وراء نجاحه.

نفض عنه كل الأفكار وأمسك بنسخته من المخطوطة أو ربما أراد الهرب من الأفكار المتزاحمة برأسه، وهكذا أشعر نفسه بأنه كله سعادة وفضول للقراءة، يريد أن يقارن بين ما سمعه قديمًا عن أسطورة "الأمير أورخان" من البروفيسور عبدالحق والمخطوطة الأصلية التي تحكي قصة كفاحه، وقصته القدرية التي نقلته مع من انتقلوا من القاهرة إلى إسلامبول، ومن هناك بدأت الحكاية، فأول كلمات استهلت المخطوطة بها على الغلاف "سيرة سيف العدل" وأسفل منها مكتوب "فاعلم أيها الإنسان أنه هذا هو حال أهل الدنيا، فلا مُلكٌ دائم ولا نعيمٌ مُقيم".

لكن مع الأسف يبدو أن مؤرخ هذه السيرة محت الأيام اسمه ليبقى فقط اسم البطل الذي أخذ على عاتقه المبادرة.

استهل كلماته بالحمد والثناء والصلاة على النبي العدنان كعادة أهل عصره، ثم بدأ في سرده:

"تلك هي حال الدنيا التي لا تُبقي أحدًا على حاله، فتعز الذليل وتذل العزيز، فما من مَلكٌ دائم ولا نعيمٌ مُقيم، فقد خُلق الإنسان في كبدٍ دائم، وذلك طرفٌ مما جرى للمغفور له سلطان البلاد الأشرف "طومان باي، رجل الأقدار" الذي وُلّي السلطة فدارت به الدنيا وغدر به الصحاب والخلان، وفي بيان قصته ما فيه من العبر لأولي الألباب".

بعد موت السلطان الغوري في معركة مرج دابق بأرض الشام، اجتمع الأمراء على أن يولوا السلطنة لابن أخيه الأمير "طومان باي" نائب الغيبة لما هو مشهود عنه من الورع والتقوى وحبه للعدل، وفي ذلك تآلف لقلوب الرعية التي ستقف خلف سلطانها من أجل رد العدوان من "بني عثمان" عن بر "مصر" بعدما استولت الجند العثمانية على بر الشام ودحروا منه المماليك، فتولى الأمر وهو كارهًا له، لكنه مع ذلك لم يتوان عن مهامه ومسئولياته الجديدة، وشمر عن ساعديه بكل جدٍ وهمة ليحفر الخنادق ويُجَيش الجيوش واستعان في هذا ببعض العامة من الزعر والعياق والعربان من أبناء البلد

ليدافعوا عن بلادهم، لكن الخيانة كانت كخنجرٍ مسموم طعنه به الأمير "جانبردى الغزالي" الذى أقنعه بدفن المدافع تحت الرمال لإخفائها عن عيون بني عثمان، وعندما يشتد الضرب يُخرجوها عند الحاجة، لكنه كان خائنًا خسيسًا متآمرًا على وطنه وأخفى المدافع وأعطى السلطان "سليم بن بايزيد" أسلم طريق للقاهرة بعيدًا عن مدفعية المماليك، لكن السلطان صبر وقاتل قتالًا مريرًا حتى أن "سنان باشا" قائد الجيش العثماني سقط متأثرًا بجراحه، لكن كل هذا الجهد لم يغير شيئًا من قدر السلطان، فسقطت القاهرة في أيدي العثمانيين في الرابع من محرم لسنة 923 هجريًا ليقيم "السلطان سليم" معسكره في منطقة "أبا العُلا " واضطر السلطان طومان باي للانسحاب إلى الصعيد طلبًا للمدد والعون من الهوارة، لكنهم خافوا من مدافع العثمانيين وآثروا سلامتهم، ولأن السلطان صنو عنيد لا يستسلم بسهولة، فجمع ما قدر على جمعه من رجاله مرةً أخرى وكبس على معسكر بني عثمان ما بين بولاق أبو العلا ([1]) وقصر بن العيني، وقتل منهم خلقًا كثيرًا لكن خنجر الخيانة للمرة الثانية يصيبه في مقتلٍ وينسحب "جانم السيفي" كاشف الفيوم ومعه الأمير "أبو حمزة" ويتخاذلان، فيضطر ([2])السلطان أن يتحصن بحي الصليبية([3]) ويحفر الخنادق ليستمر القتال أربعة أيام بلياليها حتي صبيحة يوم السبت الثامن من محرم حيث يشتد الخناق على المماليك، ولم يبق مع السلطان سوى قلة من المخلصين وبعض العبيد والخصيان ليدخل الجند العثمانيين إلى قلب القاهرة، فيبالغون في مطاردة المماليك الجراكسة ويكثرون من القتل والنهب في بيوت الأمراء وبعض الكبراء، ويضج الناس مما جرى فيرفعون الأمر "لابن بايزيد " فيأمر جنده بالكف عن ذلك وتتغير الخطبة والسكة([4]) لتصبح باسم السلطان الجديد.

يعاود سلطاننا القتال كرةً أخرى ولا يداخله اليأس أبدًا وفي "وردان" يكون الختام ليُسدل الستار على دولة المماليك.

في يوم الخميس الموافق العاشر من ربيع الأول كانت الواقعة الأخيرة التي تمزق بعدها ما بقي من جيش المصريين الأخير، الذي كاد أن يخلو من المدافع والبنادق ويهرب السلطان إلى منطقة البحيرة إلى أصحابه من العربان من قبيلة "أبناء مرعي" أملًا في أن تهدأ الأمور ويَكِر عليهم مرةً أخرى.

- زكريا، زكريا.

في البدء كانت النبرة عادية، ثم سرعان ما تحولت إلى نداءات هستيرية تثير الأعصاب:

- فار، فار.

يغتاظ كثيرًا لأن زوجته أخرجته من حالة الانسجام التي كان يعيش فيها، وينتفض من مكانه بعدما سمع كلمة فأر فهو يعلم أن زوجته الرقيقة مسكينة تعاني من إحدى حالات الخوف الهستيري الغير مبرر من الفئران والحشرات، لكنه هذه المرة لديه شك أنها تقصد المقاطعة العامدة عن متابعته للقراءة، لكنه لم يستوعب الأمر إلا بعد وصوله إلى المطبخ فلم يجد أية فئران، ويبدو أنها غارت من انشغاله بالقراءة وخصوصًا بعد غياب طوال اليوم في عمله المتواصل.

يعود للقراءة وقد تأثر كثيرًا بحال السلطان المغدور الذي تخلى الجميع عنه وتركوه وحده يواجه العاصفة بعدما آذنت شمس مُلكه بالأفول، فبالرغم من كونه عادلًا ومُخلصًا ومحبًا لرعيته، إلا أن سم

الخيانة سرى في أغلب أهل هذا الزمان، فوشي "حسن ابن مرعي" بصاحبه وبسلطانه وأرسل لابن عثمان يطلب الأمان منه ويخبره بأن السلطان الأشرف طومان باي عندهم،

فأرسل إليه الجند فضيقوا حوله الخناق وأطبقوا عليه ودخلوا به على مولاهم

أسيرًا مكبلًا بالحديد، لكنه ظل واقفًا بشموخٍ وعظمة ورفض أن ينحني تعظيمًا إلى "السلطان سليم".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عاتبه ابن بايزيد كثيرا لقتاله ورفضه أن يستسلم له وتتغير الخطبة والسكة، لتكون باسمه ولظلم مماليكه وجلبانه، فرد عليه السلطان الأشرف طومان باي بفصاحةٍ وأخبره أنه لا يجوز مقاتلتهم لأنهم مسلمون مثله، وأنه لم يكن راضيًا عما يفعله أمراؤه، لكنه لم يكن قادرًا على مخالفتهم بعدما استقر رأيهم على القتال، وكان عليه أن يقوم بالمهام المنوطة به بحكم منصبه الذى تولاه مُكرهًا، حاول سليم ترغيبه تارةً وترهيبه أخرى ليخرج للناس ليعترفوا به ملكًا على بر مصر لكنه أبى، والصراحة أن بن عثمان أُعجِب بفروسية سلطاننا وعزمه الذي لا يلين، وقرر بينه وبين نفسه أن يُبقي على حياته ويجعله حاكمًا على مصر فلن يجد عونًا خيرًا منه لأنه فارس ولن يخون العهد، لكنَّ الشيطانين الخائنين "جانبردي الغزالي، وخاير بن ملباي" دبرا مكيدة لم يكن بوسع إبليس أن تصل إلى خياله، فقاما بالإيعاز لبعض الغوغاء ليقفوا تحت شرفة السلطان سليم ليهتفوا باسم السلطان الأشرف طومان باي وما قصدا بذلك سوى إيغار صدر ابنِ عثمان وقد آتت المكيدة ثمارها سريعًا كسم زُعاف وتغير وجهه عندما سمع الهتافات، وكان معروفًا عنه الحدة والارتياب والتسرع في سفك الدماء، فقد كان أقرب في صفاته إلى "تيمور لنك".

- اللعنة، اللعنة، ليس مُجددًا.

يتأفف بشدةٍ بعدما انقطع التيار الكهربائي كعادته، وتضحك زوجته بشدة لأنها ضاقت من انشغاله عنها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

اليتيم

في صباح اليوم التالي لم يكن هناك وقتًا كافيًا للقراءة في صورة المخطوطة، لذا فقد تناولت فطوري سريعًا وأسرعت إلى مبنى الأدلة الجنائية بقلب العاصمة، لأرى ما الذى توصل إليه مؤمن بعد فحص الجثة وما وجده في مسرح الجريمة، لأنه بالتأكيد هذه أول الأمور التي سوف يهتم بمعرفتها.

بحثت عن مؤمن وعلمت أنه بات ليلته في المشرحة عاكفًا على تشريح الجثة، وبمنظر عيونه المحمرة مثل كاساتٍ من الدم، وشعره المشعث مع الصفرة التي اعترت وجهه من الإنهاك وقلة النوم، حتى أنه لم ينتبه إلى دخولي عليه إلا بعد وهلةٍ وبدا على وجهه الإرهاق الشديد، فابتدرنى بنبرةٍ فيها جفاءًا وعدائية:

- منذ متى وأنت هنا؟

عزوت ذلك إلى الإرهاق الناجم عن التعب الشديد والسهر لعدة أيام، ثم أخبرني أن كمال جعفر كان متواجدًا مساء أمسٍ لاستعجال النتائج، وكان الغريب ظهوري بعد غَياب يومين كاملين عنه فربط بين ظهوري واستعجال كمال جعفر، لكنه لما هدأ اعتذر بشدة وبدأ يشرح لي صعوبة الأمر، وأن الجثة تبدو عليها آثار ضربٍ وحشية وتعذيب، بالإضافة إلى محاولات خنق ظاهرة على العنق مع تَلقي رصاصة في الكتف الأيسر، لكن كل هذا لم يتسبب في وفاته!

فلم أتمالك نفسي من الضحك وقلت له:

- ضرب وخنق ورصاص وما زال حيًا، لقد صار أحد أبطال الأفلام الهندية، حسنًا، اشرح لي بهدوءٍ كيف حدث ذلك؟

فابتسم في وداعةٍ وأخبرني:

- كان من الممكن أن يتسبب الضرب في موت المتوفي أو واحدة من محاولات الخنق أو حتى الرصاصة لكن الحقيقة أنه مات نتيجة... وسكت عن الكلام، فصحت فيه بغضب:

- تكلم يا بغل.

أخذ يضحك وفي وسط قهقهاته قال لي:

- أنت وجه السعد، لأنه كان آخر احتمال قائم، وقد ورد في ذهني في النهاية أنه مات نتيجة أزمة قلبية مفاجئة، ويتضح أنه يعاني بالأساس من مشاكل في القلب.

اعترتني دهشة شديدة وسألته:

- مؤمن، أنت تمزح أليس كذلك؟ أي لا يوجد أي شبهة لنزيف داخلي أو تهتك بالأنسجة أو ما شابه ذلك.

فهز رأسه بالنفي تمامًا، لم يكن من الممكن أن يفكر بهذه الفرضية بعيدة الحدوث، لكن بقي السؤال، على من تقع المسئولية الجنائية بشكلٍ واضح وقطعي الثبوت؟

فابتسم مرةً أخرى وقال لي:

- اتصل بصديقك أيمن وكيل النيابة، قد يفيدك بهذه الجزئية القانونية "

في هذه اللحظة رن الهاتف وكان المتصل كمال جعفر يستعلم عن نتيجة التشريح، وتم إعلامه بما تم التوصل إليه ولم يتمهل ليفهم بقية التفاصيل من مؤمن، بل أغلق الخط فورًا وأعاد أسلوبه في استغلال كل من حوله لتحقيق أغراضه.

صورة السلطان سليم الذي لم يفارقني ما فعله مع غريمه بعدما سقط في قبضته، وقد كان فارسٌ شهمًا وكل من يراه يُعجب به وتقع محبته في قلبه، لذا لما تأكد سليم من حب العامة لنظيره لورعه وتقواه ولاختلافه عن بقية الأمراء المماليك في ترك الظلم والتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ساورته الشكوك وصارت أكثر جدية خصوصًا بعد الخطاب الذى وصله من أمير السوء جانبردى الغزالي وخاير بيك اللذان عاوناه على إخوانهما وهتاف العامة باسمه، فوجد أن كل هذه الشواهد تشير لما يجب فعله للحفاظ على ملك بني عثمان.

أكرم السلطان سليم بن بايزيد السلطان الأشرف طومان باي وبالغ في حفاوته، وظلت هكذا الحال والحقد يأكل قلب الخائنين، وظنا أنه لم يلتفت إلى خطابهما الذى أرسلاه سرًا، إلى أن تمكن السلطان سليم من كل شيءٍ يخص ماليات البلاد وكشوفياتها، فاتخذ قراره ولم يجد غضاضةً فيه، فمهما أحبه لن يكون أخلص له من رجاله الذين تركوه في ميدان النزال، ولا حسن بن مرعي الذي أجزل له العطاء فباعه بأبخس الأثمان وقبض مقدمًا.

في الليلة الموعودة في الحادي عشر من ربيع الأول لسنة 902 هجريًا([5]) صلى السلطان المغدور العِشاء ثم نام، وأتاه الهاتف في المنام وأخبره " قدم نفسك للرحيل فقد مضى الكثير والقليل"، فانتبه من نومته فزعًا وتعوذ من الشيطان الرجيم ثم غلبته سِنةٌ من النوم مرةً أخرى، فنام نومةً طويلة قام منها وقد وجد نفسه كأنه صُب عليه الماء من كثرة العرق، وقد أخبر هذا للقاضي "أصيل الطويل" فإنه لم يأته أحدٌ من أهل مصر غيره، وأوصاه بأن يُغسله ويُكفنه بيديه.

أتى بعدها "القابوجية"([6]) و"الجاويشية"([7]) وأخبروه بأن السلطان يطلبه، فانقبض قلبه وشعر بأن لحظته قد حانت وأتت، فقرر أن يواجه مصيره للنهاية بشجاعةٍ وكانت هناك عيون تراقب ما يجري من أحد الأماكن السرية، تتسمع وتشاهد ما يدور في القصر بين الأشرف طومان باي وابن بايزيد الذى قال:

- أنا أعلم أنك فارسًا همام، لكن دولتك قد آذنت بالأفول والسجادة قد تتسع لصوفيَيّن، لكن العالم لا يتسع لمَلكيّن"

رفع وقتها السلطان رأسه بإباءٍ وشمم وقال له:

- لن أرتجي عفوك، وقد كنت انتظرها منذ وقتٍ إلى أن أتاني اليوم الهاتف في منامي.

فنظر له ابن بايزيد بأسى واضح ثم قال له:

- أشهد بأنك كنت خصمًا عنيدًا وندًا قويًا، لذا سأشرف بنفسي على رعاية ولدك.

انخلع وقتها قلب السلطان، فقد خاف أن يقتله حقدًا وانتقامًا لكنه أسرها في نفسه، وها قد انكشف ستره وهو الذي آثر أن يتزوج سرًا إكرامًا لمقام زوجته الأولى "خوند بنت قانبرى الغزالي" التي عاش معها زمنًا ولم ينجب منها، ثم لما أتاه الابن الذي تمناه لم تمهله الدنيا، وسقط أسيرًا ولم يعرف لابنه اسمًا بعد، ولم يهتم كيف عرف ابن بايزيد بأمره، لأنه بالتأكيد له عيونه المبثوثة في كل مكانٍ وإلا ما كان ظفر به من البداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ركب بعدها البغلة بهدوءٍ دون أي مقاومةٍ منه، وظل رافعًا رأسه في شموخٍ ولم يهتز، فقد كان رحمه الله مؤمنًا وقد علم أن هذا هو قدره الذي عليه أن يلاقيه بإيمانٍ واحتساب، وكلما مر من مكان تجمعت العامة حوله وهي تبكيه في حزنٍ شديد فقد علموا ما سوف يلاقيه، وهناك وصل إلى باب زويلة حيث وجد "المشاعلجي" قد أعد مشنقته، فصعد بثباتٍ شديد وتؤدة والناس من تحته تبكي بحرقةٍ، فاستمهله ثم أشار للناس فصمت الجمع الحاشد وران صمتٌ مهيب على المكان، حتى الصبية الصغار سكتوا، فلم يزد عن بضع كلماتٍ طلب فيها من أهل مصر الدعاء وقراءة الفاتحة له، ثم ترك المشاعلجي ليتم عمله.

ووقف بين هذا الحشد الحافل نفس العيون المُراقبة تنسال منها العبرات الحارة الحزينة في وداعٍ صامت حانق، ترثي المغدور، وأيام عز عاشها صاحبها في كنفه عزيزًا مُكرمًا، فحزن لموته غدرًا بعيدًا عن ميدان القتال أيما حزنٍ وبدأ يروي:

- قررت أن أعود للأخذ بالثأر ممن غدروا بأستاذي فلم يمهلني القدر، لأجد ابن بايزيد يحمل الأمير الوليد بين يديه وهو يهدهده وكأنه ابنه الذي ولد له من صلبه، فقلت سبحان من أنزل في قلبه الرحمة، ثم أعطاه لإحدى الجواري وأمرها بحسن تعهده ورعايته فهو في كفالته، سيأخذه ليُربى مع الأمراء وخاصته بقصره في إسلامبول كما يليق الأمر بأميرٍ، وخاصةً بعدما ماتت أمه حسرةً على أبيه عندما سمعت بخبر أسره.

لم يكن يعلم بخبر ذاك الصغير سواي، فأنا الذراع الأيمن للسلطان وكاتم أسراره، فقد قرر أن يتزوج بعدما استطالت الأيام بينه وبين زوجته ولم تنجب له ولدًا أو حتى بنتًا، وإكراما للعشرة بينهما لم يخبرها بزواجه ولم يعلم بذلك سواي، ومر برأسي الكثير من الذكريات التي جمعتنا سويًا، فقد طوق رقبتي بجميلٍ لن أنساه له مهما طال الزمن.

قبل سابق كنت شابٌ طائشًا، وكان أبي شيخ قبيلتنا بالنوبة، وكان قويًا مهابًا يُعدونه ملكًا في بلادنا، لكنني لم أرع هذا وذهبت في طريق الشر والتف حولي أصدقاء السوء، وصرت مع من صاروا في قطع طرق القوافل إلى أن خرج في مرة السلطان وكان ذلك قبل تولي نيابة الغيبة وظفر بنا، وقتل كل رفقائي ولم يبقَ سواي فتواجهنا، والحق يُقال أنه كان فارسًا لا يُشق له غبار، عالمًا بمواضع الكَر والفر والطعن والضرب، لكنني لم أستسلم له وقاتلته حتى كلّت سيوفنا، ثم فجأة غافلني بحركةٍ لم أرَ مثلها وحملني من تحت إبطيَ كطفلٍ صغير وظفر بي أسيرًا، كان ذلك في حضرة الأمير الأشرف طومان باي أمير الألوف وقتها، الذي لم أكن أعلم مقامه وعظيم مقداره إلى أن علمت واستسمحته ووعدته بألا أعود لفعلتي تلك مرةً أخرى، وأقسمت له بأغلظ الأَيْمان فعفا عني لما علم بأصلي ومكانة أبي، ثم أذِن لي باللحاق بركابه وخدمته، ومنذ ذلك الحين وأنا تابعه الأمين، ارتقيت في خدمته وعشت بالظل لا يعرفني إلا قليل، وقد أتم جميله على بأن زار أرض قبيلتنا وأعلم أبي بأنني صرت من خاصته ورَجُلُه الأول، فأعلى من مقامي عند أبي واطمأن قلبه على ولده الأكبر، ومن وقتها وجميله معلقًا برقبتي و قد حان الوقت لرده، فكنت السند والحامي لولده.

ظل جثمان سلطاننا معلقًا ثلاثة أيام مصلوبًا على "باب زويلة" ثم بعدها أنزلوه وساروا به في نعشٍ إلى قبة السلطان الغوري فغَسّله القاضي "أصيل الطويل" وكفنه في ثيابٍ أرسلها له السلطان سليم من

"خاص الموصلي الرفيع"([8]) وصلى عليه القاضي حسب وصيته، وقد أرسل السلطان سليم ثلاثة أكياسٍ من الفضة ليتصدقوا بها عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إسلامبول

في الخامس والعشرين من ذي الحجة لسنة 923هـ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

إسلامبول

(1)

وصلنا بعد جَهدٍ جَهيد إلى عاصمة مُلكهم "إسلامبول" وما أخرنا وأثقل حركتنا هو الأحمال التي رجع بها جيش ابن عثمان من الذخائر والنفائس العظيمة والكثيرة التي غنمها في حربه على الأمراء المماليك، بخلاف أربعين جملًا محملةً بالذهب والفضة، لم يسلم من السلب والنهب حتى الأهالي، كما استولى على الأعمدة الرخامية بإيوان القلعة وأبواب القاعات ورخامها الذي أمر بفكه وتم تهجير الكثير من العلماء والقضاة وأرباب الحرف والفنون والصنائع وحتى اليهود، وبعضًا من العوام للخدمة بقصوره، وبسبب هذا بطَل ما لا يقل عن خمسين صنعة وحرفة بالقاهرة، وقد تمكنت من التسلل لواذًا مِن بين مَن أخذهم، وساعدني في ذلك إجادتي لعدة لغات، فقد كنت الرجل الأول في خدمة السلطان المغدور منذ كان نائبًا للغيبة وربما قبلها، فتعلمت الفارسية والتركية والحبشية وشيئًا من لغة الروم مع مقدرتي على التنكر في أكثر من مظهر وهيئة، فساعدني ذلك في الاختلاط.

لما وصلت إلى إسلامبول وجدتها مدينة عامرة، هوائها معتدل تطل على البحر ومع ذلك فهي حصينة البناء تحوطها الأسوار العالية، وبها الكثير من المدفعية التي تؤمنها من ناحية البحر ولها حامية قوية من العسكر الأشداء، لكنها تكاد تخلو من الروح برغم كل ما فيها من مباهج، ولعل هذا هو السر الذي دفعه لنقل كل هذا الكم من الخلائق معه من القاهرة إلى إسلامبول بعدما انبهر بسحر القاهرة، فظن أن بإمكانه صُنع هذا بعاصمة مُلكه لتشهد على ازدهار عصره.

فالحق يقال أن تخطيط إسلامبول أفضل تنظيمًا من القاهرة وشوارعها فهي أكثر اتساعًا، فقد علمت أن الأقدمين من البيزنطيين بنوها وحصنوها ضد هجمات البرابرة، وأنه لم يقدر أحدٌ على فتحها ومهما تم محاصرتها كانت أقواتها تأتيها من البحر، إلا السلطان "محمد الفاتح" هو الوحيد الذي فعلها ولم يُفلح بعده أحدٌ في ذلك، وصارت عاصمة مُلك بني عثمان الشاهدة على قوة عزمهم، ولعلها كانت هذه أولى الإشارات على ازدهار نجمهم وارتفاع شأنهم، ليتسع مُلكهم وأفول مُلك غيرهم من الصفويين أو الأمراء المماليك بعدما تجاوزا في ظلمهم للعباد "بمصر والشام".

وطنت نفسي على تحمل الأوضاع الجديدة، بعدما اخترت المكوث في قصر السلطان والعمل كخادم بالقرب من الأمير الصغير حتى يكبر ويصير مسئولًا عن نفسه، ونسيت وتناسيت ما كنت عليه منً عز وجاه لتحمل الأمر، ففي سابق عهدي بزمن مولاي طومان باي كنت رجل مهامه الأول، لكن كل هذا يهون في سبيل تحقيق هدفي الذي وضعته نُصب عينيَ فأخشى ما أخشاه أن تتغير الأمور والأحوال والحنان الذي رأيته في عينيّ السلطان الجبار، فيتحول إلى ضراوة ووحشية ويقتل الصغير في ثورة من ثورات غضبه كما فعلها قبل سابق مع أبيه، لذا دأبت دومًا على أن أكون حوله فهذا ما منعني من قتل ابن بايزيد قبل سابق، لذا سأنتظر حتى يكبر الصغير وأساعده في استرداد مُلكه المسلوب ويأخذ بثأر أبيه وحقه الأكيد.

المَذلة بعد العز شاقةٌ على النفس وكم من مرة حدثتني نفسي بالعودة، وقد كان بإمكاني أن آخذ ما قدرت على الاحتفاظ به من نفائس وأرجع لديار أبي بالنوبة وأعيش معززًا مُكرمًا، وقد سبقني أكثر من شخصٍ استطاعوا الفرار من إسلامبول إلى القاهرة إما بحجة الزيارة أو فروا خفية، لكن جميل مولاي لنً أنساه أبدًا ما حييت، وسأظل رفيقًا للأمير الصغير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

مر الزمن سريعًا، ثلاث سنوات بعيدًا فيها عن وطني الذي نشأت فيه وتربيت وعنه دافعت مع مولاي، لكن عزائي الوحيد في الأمير الصغير الذى نما وصار قادرًا على نطق اسمي، وأفرح كثيرًا عندما يصيح باسمي "إدريس" وصرت أفرح بصحبته.

تحسنت أوضاعي إلى حدٍ كبير بعدما صرت كبيرًا للخدم وبإمكاني الاستئذان للدخول على السلطان، وقد أترقى لأكون من الحُجاب بعدها، يبدو أن الأيام مرت سريعًا دون أن أدري ولم يمهلني الزمان لأنتقم ممن غدر بمولاي، فها هو الآن في فراش المرض ينازع والكل جَزِعًا، وقد تم التكتم على خبره ليرسلوا إلى ابنه الشاب الصغير "سليمان" ليكون خلفًا له من بعده، والحق يُقال فعلى الرغم من شراسة طباعه وسرعة سفكه للدماء، إلا أنه كان في أغلب أحواله فاضلًا، وقد ندم كثيرًا على قتله للسلطان طومان باي وبدأ يُكفر عن ذنبه بحسن تعهده للصغير الذى أعطاه اسم جده "أورخان غازي" فنشأ وتربى في قصره وتحت رعايته كابنٍ من ابنائه، وقبل موته أوصى وشدد بِحُسن رعاية الصغير، فالحق يُقال أن الغضب أغشى بصري وحاد بي عن جادة الصواب، فعلى الرغم من ظلم السلطان لأهل مصر إلا أنه كان محبًا لرعيته ساهرًا على أمنهم، وقام بأمر الجهاد على خير وجهٍ، فصد الكثير من هجمات الصليبين الغاشمة وحافظ على بلاد المسلمين آمنة.

عند موت أي سلطانٍ قدير متحكمًا بأمور البلاد يهابه الجميع وصعود ابن له شابٌ صغيرٌ بعمر العشرين إلى سُدّة الحكم في مُلكٍ مترامي الأطراف، تلعب الأهواء بعقول بعض الطامحين الطامعين لينفخوا ريح الفتنة المُهلكة أملًا في الظفر بالاستقلال، وقد يعصف أمرٌ كهذا بأركان الملك التليد إن لم يكن من خلفه بنفسه قوته.

وردت الأنباء للقصر أن أحد الخائنين قرر أن يطمح ويطمع فيما هو أكبر من طاقته ويتسلطن على الشام، ليعيد مجد الجراكسة مرةً أخرى، فما علمته من أحد الوافدين من مصر وأخبار أخرى تسمعتها، أنه بعدما استتبت الأمور للسلطان سليم في البلاد وتشتيت أمر المماليك، عاد وتصالح معهم على أن يهادنوه، وأوكل لهم إدارة شئون البلاد، ثم بدأ في توزيع الأنصبة على كل من حالفه، فأكرم "حسن بن مرعي" على خيانته وتركه على كشف "البحيرة"، وأما الأمير "جانم السيوفي" الخائن جعله كشافًا "للفيوم" وأما "خاير، وجانبردي الغزالي" فأقطع الأول ولاية "مصر" والثاني "الشام" لنهاية عمرهما، أما "المحتسب بركات بن موسى" الشهير باسم "الزيني" تركه على مكانته.

بعد موت السلطان سليم لعبت الأهواء بعقل جانبردي وقد كان سخيف العقل فيه رهقٌ، فظن نفسه أهلًا للسلطنة وتعلقت آماله بالمُحال وتراسل مع رفيقه خاير من أجل أن ينقلبا على السلطان الجديد، لكن خاير كان بطبيعته خوارًا جبانًا وحذر صاحبه من مغبة الأمر وجيوش العثمانيين الجرارة، لكن الآخر كان فخورًا متخايلًا لم يأبه للنصح وهدده إما أن يكون معه أو يبدأ به، فلم يجد خاير بدًا من أن يهادنه حتى يرى من ينتصر وحرضه على الاستيلاء على نيابة "حلب" فإن تم له الأمر فهو معه، فكان كلام خاير لجانبردي بمثابة إشارة ليتمادى في غيه وخرج من دمشق معه شرار الناس ومن لا يرتجي خيرهم ليحاصر حلب، ولم يكن يدري أن خاير أرسل إلى السلطان الجديد بإسلامبول يحذره وما أشبه

اليوم بالبارحة، فقد انتهت الحال بهزيمته وقطع رأسه على يد واحد من رجاله الذين رباهم على يده، لتهدأ الفتنة ويستتب الأمر للسلطان الجديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

استوى السلطان الشاب على أريكة مُلكه استواءً بلا منازعة بعد موقعة "موهاج"([9]) ، التي قضى فيها السلطان على أكبر جيوش الصليبيين الذي يحوي أعظم فرسان مدرعين في عصره، وقد كنت شاهدًا على عظمة الأمر عندما كنت برفقة الأمراء الصغار، وأصر الأمير أورخان أن يشهد المعركة وأحدث جلبة وضجة رهيبة بالقصر، وظل يبكي ويتوسل للسلطان أن يأتي معه، حتى أن "طرغود باشا" كبير البصاصين وقد كان من ضمن القادة الذين ذهبوا في جيش العثمانيين إلى بر مصر تبسم وقتها وأشفق على شجاعة الصغير، ثم ترحم على أبيه فزلت من عيني دمعة أخفيتها بطرف ردني([10]) ، لكن السلطان حسم المسألة فلن يصحب معه طفلًا صغيرًا وخاصةً أن والده الراحل شدد عليه كثيرًا بحسن تعهده لأنه سوف يكون ذو شأنٍ في المستقبل، لذا طلب وقتها أورخان أغرب طلب قد يطلبه صغيرًا في عمره، وهو أن أذهب أنا بدلًا عنه مع الجيش المحارب لكي أعود وأحكي له عن انتصار جيوشهم على الصليبيين، فرضخ السلطان لرغبته وذهبت برفقة الجيش العرمرم لأعود محملًا بالأخبار للصغير أورخان الذي كان يُطرب لسماع قصص الجهاد والفروسية ولا يمل منها ويطلب دومًا أن أعيدها عليه، فيجري في الحديقة يقاتل جنودًا وهميين بسيفه الخشبية وكلما كبر تشتد سعادتي به وأترحم على أبيه، لكن كان هناك من له رأيٌ آخر، إنه الصدر الأعظم "إبراهيم باشا الإفرنجي" وقد كان هذا الرجل مزيجًا غريبًا، فهو وُلد في "بارغا باليونان" وقيل أن والده كان صيادًا، لكن من ربته عجوزٌ من ولاية "مغنيسيا" لكن ملامحه أوحت لي أنه من أصول ألبانية و كل هذه التفاصيل الدقيقة لا يعرفها إلا الخدم.

كان أبيض الوجه مشرب بحمرة، طويل القامة عريض المنكبين، عيناه فيها زُرقة باردة قوية قادرة على اختراق ضباب النفوس وسبر أغوارها، وعند الغضب تتقد كالجمر.

لا أدري ما سر الكراهية التي المحها في عينيه تجاه أورخان، هل لتشابه النشأة وكلاهما تربى بعيدًا عن أهله وبلاده، لكن شتان بين ولدي أورخان الأمير بن السلطان وحتى إن كان مُلك أبيه قد أفل وخضع لسلطان ابن عثمان، لكن هذا لا يسلبه أصالته، لكنني بعد برهة من الزمن أدركت أنه يُعد ابنه "محمد" وهو ابن أخت السلطان ليكون صدرًا أعظم من بعده، لكن نبوغ أورخان وحب السلطان له كانا دائمًا العائقين في نظر إبراهيم باشا الذي يقف بوجه أحلامه، وربما كانت لكلمات طرغود باشا كبير البصاصين وزنها وأثرها في نفس الباشا، فلما شب الأمير أورخان عن الطوق قليلًا كان دائمًا طرغود باشا يداعبه قائلًا:

- مرحبا بالقائد الهُمام.

كانت هذه الكلمات كفيلة لتُشعر فتى صغير في عمر الثالثة عشر بالخُيلاء، وتشجعه على المزيد من الملاعيب الشيطانية التي لا يتوانى عنها مهما ضُرب وأُدب، لكن السلطان كان دائمًا ما يقابل أفعاله بالضحك، حتى جرت تلك الواقعة فاضطر لعقابه،

ففي إحدى المسابقات التي يُجريها السلطان لصغار الأمراء، يكون عليهم تسلق الحبال لصعود إحدى التباب العالية، ثم يعقب ذلك ركوب الخيلِ واستخدام النشاب، فما كان من هذا الجن الصغير إلا أن

وضع زيتًا على الأحبال المعقودة للتسلق وظل الجميع يحاولون الصعود لكن سريعًا ما ينزلقون، ولم يلحق به سوى منافسه الأوحد "محمد" الذي فطن للحيلة فأبهر الجميع بأن خلع عمامته ولفها على يده ليمنع نفسه من الانزلاق، لكن أورخان صاحب الخدع الرهيبة لم يكتفِ بهذا، فأحدث قطعًا لا يُري بأسرجة الأحصنة وكل من يركب حصانه مع السرعة والحركة يسقط من عليه، والسلطان يشاهد تلك الأفاعيل ويتابع بكل تيقظٍ وهدوء إلى أن وصل أورخان إليه وكله كِبر وخيلاء، بعدما سبق الجميع وتصور أن السلطان سوف يعطي له الهدية التي وعد بها للفائز، فابتسم السلطان وأجزل له التأديب والعطاء وأمر بحبسه ثلاثة أيام تأديبًا له لأنه فاز على قرنائه بالغش والخديعة، لكن القصر كله صار يتندر على أفعاله والسلطان صارَ لديه يقين من ثاقب نظر أبيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

مُصارِع الأسود

(1)

"إنما أنت يا ابن آدم أيامٌ معدودات فإذا ذهب يوم، ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل"

كما قالها أحد الصالحين عن كَر الزمان الذي ينسل سريعًا وينصرم من بين يديّ كمسبحةٍ صُنعت حباتها من رمل الصحاري وتفلتت أيام عمري لا يلبث يومي بالبدء وتسطع شمسه حتى أُفاجأ بها مدبرة ويأتي الليل البهيم، وما بين إقبال وإدبار سرقت أيام العمر في الخدمة بالقصر ورعاية الأمير، فهو عزائي الوحيد في غربتي.

أراه يكبر أمام عينيّ كوليدي وبدا يشب عن الطوق وتظهر عليه علائم الفتوة ليزداد شبهًا بأبيه في الخلقة والطبائع فصار فارسًا رغم صغر سنه ولديه القدرة على ركوب أشرس الجياد وأكثرها اضطرابًا، يحمل نفسًا طيبة ووجهًا ترتاح له النفوس فتقع القلوب في محبته، ويمتاز ببنيانٍ قوي معتدل وعيون لامعة كصقر، هو صورة مصغرة من أبيه السلطان المغدور وإن اختلف قليلًا عنه في حبه للمرح والصخب والمكر الذى لا يضر، يُشاكس به أقرانه وأترابه بخلاف أبيه الذى كان مهيبًا يميل للصمت ومخالطة الأتقياء والصالحين، ولعلي لم أخالطه إلا بعدما تجاوز عبث الشباب والصبا وأثقلت الهموم عاتقيه، لكن أغلب الظن أن الطبع غلاب مهما قست الظروف.

استمرت الأيام متشابهة في حياتي بالقصر لا تأتي بجديدٍ سوى سعادتي المتجددة كلما رأيت أورخان ينجح في هزيمة أترابه في الفروسية والقنص واللعب بالسيف، ودائمًا أنا جواره وحوله بالتوجيه والنصح فلا يتذمر أبدًا من كلامي بل يحترمه ويقابله بالامتنان، فما أكثر خوفي عليه وهو ما يزال غض العود وأخشى من اندفاعه وقلة خبرته، إلى أن جد جديد أخيرًا، فقد أمر السلطان باستحضار عدة أسود من أرض السودان يسوقوها مدربيها من الحبش الأشداء وقد كان حدثًا جليلًا وجديدًا على أهل القصر، فخرج الجميع إلى مشاهدتها وهي في أقفاصها منبهرين بأشكالها وزئيرها الذي أثار رعب البعض رغم أنها في الأسر.

بالنسبة لي كان أمرًا اعتياديًا تدربت عليه من الصغر بل تعلمت كيفية اصطيادها بالحراب مثل أبناء السودان والحبش في رحلاتي في الصغر مع أبي إلى هذه البلاد، وقررت أن أُعلم أورخان مثلما علمني أبي وأكسر خوفه منها، لكنه لم يكن مهتمًا أو هكذا ظننت في البداية أن خوفه يمنعه من الاقتراب منها لكنه كان على عكس سكان القصر جميعًا لقد كان الشخص الوحيد الذي أشفق عليها لحبسها ولم يعجبه بقائها في الأسر والذل، وكلامه لي أهاج الذكريات بقلبي وتذكرت أبيه ووقفته في وجه ظلم الأمراء المماليك مرارًا وتكرارًا، وكذلك أورخان تصرف مثل أبيه دون مشاورتي، ففوجئت به يحدّث السلطان في أمرهم وقال له:

- مولانا السلطان سليمان، أدام ربي عزك، أبانا، أنت خليفة المسلمين ولا ترضى بالظلم، فكيف تحبس من ليس له جريرة؟ وهذه الحيوانات عجماء لا تفهم، فلماذا تبقى في الأسر؟

ابتسمت من فطنة الفتى ولباقة حديثه، وأشفقت عليه من غضب السلطان وتوقعت أنه سوف ينهره أو يأمره بالانصراف لكنه على العكس استمع له بكل انتباهٍ ثم تبسم من نباهته وربت على كتفه، ثم قبّل

رأسه ورد على كلامه بهدوء:

- بني لا تقلق فكل شيءٍ تم الإعداد له بعناية، وأعدك بأن تعود هذه الأسود إلى موطنها مرة أخرى بعدما تنتهي الاحتفالية.

فرح كثيرًا أورخان بكلام السلطان رغم أنه لم يستوعب كلامه بشكلٍ كامل، لكنني داخلتني الهواجس وصرت أتخوف من القادم لأن عباراته كانت غامضة مبهمة تحمل الكثير من المعاني، فهل يفعلها السلطان وهو الرجل العادل! لكن هذا ليس غريبًا عنه ولا عن بني عثمان فجميعهم دائهم المُلك.

صارت عادتنا أنا وأورخان الذهاب إلى أقفاص الأسود لإطعامها فانكسرت هيبتهم في قلبه ولم يعد يخشى زئيرهم وفرح كثيرًا بحكاياتي له عن شجاعتها وعفتها، فهي لا تأكل إلا وقت الجوع عكس بقية الضواري، لذا استحقت لقب ملوك الغابة.

- تم الأمر بتدبير وعناية فائقة لا تقلق.

قالها أحد الخاصة السلطانية، فأعاد لذاكرتي هذه العبارة كلمات السلطان مع أورخان منذ حوالي شهرين وتاه الكلام وسكنت هواجسي في خضم الحياة والإعدادات للاحتفال الكبير، لكن إعادة العبارة مرةً أخرى جعل القلق يطفو، فما الذي يفعله حراس السلطان وما الذي تم الإعداد له بعناية؟!

حاولت أن أُطمئن نفسي، فلعلهم قصدوا الاحتفال الذي سيبدأ بعد عدة ساعات وينتظره الجميع بفارغ الصبر لمشاهدة عرض الأسود والضواري الأخرى التي لا يعرفها سكان إسلامبول واستحضرها السلطان من بلاد السودان وتم تدريبها على يد الأحباش، في احتفالية يحضرها الأعيان والكبراء وقادة الجيوش ورؤساء فرق الانكشارية، فالجميع هناك، لكن شيئًا بداخلي أنبأني أن هناك أمرٌ ما يدبره السلطان وسيحدث.

وقفت أشاهد العرض واستمتعت به لكنه ليس جديدًا عليّ هذا الأمر، لكنه بالنسبة لسكان إسلامبول أمرٌ جديد عليهم مشاهدة الأسود المأسورة وهي تتحرك بأمر الرجال الأحباش لتقفز من وسط النار وغيرها من الأمور، الكل كان مشدوهًا إلى أن أتت اللحظة الحاسمة التي كنت أحسب حسابها قرر السلطان أن يُنهي الأمر بطريقته ويتخلص من كل المناوئين بضربةٍ واحدة دون أن يثير بلبلة، فأعلن أنه يريد رجلًا قويًا شديدًا يخرج من بين الجموع لينزل إلى الساحة ليقاتل أحد الأسود الجائعة، وران صمتٌ على المكان وعلت الدهشة الوجوه، لكنه ظل يتحدى شجاعة الجميع و يستنفر قدراتهم فلم يسمع إلا حسيسًا وهمهمة لكن أحدًا لم يتقدم أو تواتيه الشجاعة، حتى علا صوت السلطان يستحثهم متحديًا إياهم أملًا في ظهور شخص واحد، لكن الجميع جمدوا في أماكنهم انتظارًا لما سيحدث، فنادى السلطان على أحد قادة الانكشارية اشتُهر عنه التمرد وأمره بالنزول ليبهر الجميع بشجاعته ويثبت ولائه لسلطانه، ودفعته الجماهير المتحرقة لرؤية القتال أو ربما خوفها من المصير المحتوم جعلها تشجع ذلك المسكين الذي إن نجا فقد كفى الجميع مئونة الأمر، وإن لقي حتفه فذاك قدره المكتوب ولا فرار منه.

حاول المسكين أن يظهر التجلد لكن بدا أن وجهه قد امتقع وجسده اعترته الرعشة حين ناولوه الحربة، وهذا جعلني أشفق عليه كثيرًا من المصير الذي ينتظر ذلك المغدور الذي دفعوه لمجابهة

الموت وجهًا لوجه، والأسد بطبيعة الحال يستشعر الخوف في عينيّ فريسته وسينقض عليه بلا رحمة ليقطع أوصاله.

لما وجد أنه لا مناص من الأمر قرر الموت بشرفٍ، حاول في البداية المناورة قليلًا بالحربة الطويلة لكي يقترب من الأسد ويطعنه طعنةً نافذة، وبدأ في تنفيذ خطته والجماهير بدأت تصفق بقوةٍ وتشجعه وظن أن المسألة سهلة، لكن الخوف ما زال يسيطر على عقله، فلما اقترب منه مسافة كافية لطعنه تمكن الأسد من الإطاحة بحربته بضربةٍ قوية من كفه، فصار الفارس عاجزًا أمام الأسد الجائع الذي لم يصبر عليه كثيرًا فاتكأ على قائمتيه الخلفيتين وقفز ليدرك ضحيته الهاربة من الخلف، ويقف على جثته وينهشها.

أخذت الجماهير تهمهم بحزنٍ ثم صفقت لتصفيق السلطان ودخل الأحباش سريعًا لسحب جثة الضحية الأولى، ثم نادى الصدر الأعظم "إبراهيم باشا الإفرنجي" على آخر ليتقدم إثباتًا لمقدار قوته وشجاعته وولائه لسلطانه، لكنه لم يثبت كثيرًا ولقي حتفه سريعًا كالأول، فتقدم أخوه إلى السلطان يستأذن بالنزول إلى الساحة لقتل الأسد ولكنه لم ينجُ هو الآخر من براثنه، لقد توحش وازدادت ضراوته بعدما ذاق اللحم البشري.

اشتعلت حماسة الجماهير واشتدت الإثارة، فلا أحد يعلم على من يكون الدور ولم يعد منظر الدماء والأشلاء يضايقهم، بل صاروا أكثر تشوقًا لمرأى بطل جديد أو ضحية حتى صار العدد سبعة من الرجال الأشداء نهشهم الأسد.

لمح السلطان الصدر الأعظم يشير من طرفٍ خفي إلى ابنه مُحمد ولم يستوعب ما يفعله حتى فوجئ بقدوم أورخان يطلب الإذن بالنزول لمنازلة الأسد، ومحمد ابن أخته زوجة الصدر الأعظم يعلن على الملأ نزول فارس جديد لمنازلة الأسد الجائع، وخيمت الحيرة والصمت على الأجواء، الكل ينتظر كلمة السلطان الذي فوجئ بالأمر الغير متوقع ولم يعد بوسعه التراجع بعدما أعلنوا على الملأ عن تقدم الأمير الصغير للنزول فاستشعر السلطان الحرج لكنه كظم غيظه وجز على أسنانه ورمق إبراهيم باشا شزرًا، فانكمش في موضعه لكنه من داخله كان يستشعر لذة الانتصار.

أشفق الجميع على الفتى الصغير لحداثة سنه، وقد شاهدوا مصائر من سبقوه وقد كانوا أكبر سنًا وأكثر خبرةً وتمرسًا وتحولوا لفريسة سائغة، ومع كل مرة ينزل فيها خصم جديد تزداد ضراوة الأسد.

للمرة الثانية يغافلني الأمير الصغير ويتقدم لمقاتلة الأسد بعدما تحدى الصغار بعضهم البعض فدفعه محمد إلى هذا بتدبيرٍ من أبيه الذي وجدها فرصة سانحة لإزاحة منافس ابنه القوي، بل الوحيد الذي حاز حب السلطان ورعايته وعند خلو المكان منه فمن أصلح من ابنه بعدما يكبر لتولي منصب الصدر الأعظم، ومن يدري فقد يصبح ولي عهد السلطنة.

وقفت بجوار السياج الحديدي لا أقدر على التسلق والقلق يأكلني وتكاد روحي تفارقني من الغيظ والكمد، لكنني شعرت بأن هناك من يراقبني لكنني لم أهتم فكل حواسي كانت مع أورخان الذى بدأ ينفذ كل ما علمته له فيما سبق، واختار الحربة متوسطة الطول وليست الطويلة مثل بقية المحاربين

حتى يتمكن من المناوشة عن بعد ولا يتعثر بها أثناء حركته، ثم أخذ في مناوشة الأسد أملًا في طعنه عن بعد متجنبًا قوة كفه، لم أتدخل في أثناء قتاله للأسد حتى لا أشتت انتباهه، كان يناوشه ومع كل حركة يقترب منه ليتراجع الأسد للخلف مبتعدًا عن نصل الحربة فتصفق الجماهير في فرحٍ وإثارة، فلم يتوقع أحد أن هذا الفتى الصغير يثبت كل هذه المدة، فاستخف بالأمر وفرح الأمير الصغير بتشجيع الجماهير له لكن الأسد ثار غضبه من حركاته السريعة، لكنه بمجرد اقترابه وتيقنه بأنه أوشك على قتل طريدته، انتبه الأسد لخدعته ودفع الحربة بضربة قوية فطارت من أورخان ولم تصبه وحبست الجماهير أنفاسها من الإثارة.

سريعًا تمكن من التقاط الحربة مرةً أخرى، واقترب أكثر ليواجه الأسد فطعنه طعنةً جرحته لكنها لم تصبه في مقتل، وصفقت الجماهير بحرارةٍ وهتفت الانكشارية باسمه تشجيعًا له على شجاعته وإصراره برغم حداثة سنه، واقترب مجددًا من هدفه بعدما جرحه وأثار غضبه وأنساه الغرور مكر الأسود الذي حذرته منه، فإن جرحت أحد الضواري ولم تتمكن من النيل منها تصبح أكثر شراسة وعدائية وتسعى للثأر، ولا تهدأ إلى أن تنال من الذي آذاها وقد قام الأسد بمخادعته وتركه يقترب منه كفاية لأنه يعرف خطوته القادمة بعدما يحاول تسديد طعنةً أخرى له، لكنه كان أسرع منه فعاجل حربته بضربة من كفه الجبارة لينكسر نصلها وتصبح بلا جدوى وصار أعزل، وبدأ في التراجع أملًا في جمع شتات نفسه حتى يستطيع المناورة مسددًا ناظريه نحو الأسد الذي يقترب منه في بطءٍ محركًا ذيله في عصبيةٍ شديدة وزئيره يهز المكان وهو يستعد لقفزته الأخيرة لينهي حياة خصمه العنيد الذي تجرأ على حضرة ملك الغابة، وسقط الأمير في فخ الخوف الذى شل تفكيره وكاد من شدة الارتباك أن يتعثر في أحد الأوعية الكبيرة الخاصة بطعام الأسود أثناء تراجعه.

جلس الحضور كأن على رؤوسهم الطير، منهم من خلع عمامته أو وضع يده على رأسه، أو جز على شفتيه غيظًا وشفقة على الفتى الغض العود، وهم ينتظرون اللحظة الأخيرة، لا أعرف كيف فعلتها وصرخت بكل قوتي:

- تفقد سيفك أيها الأمير ودع عنك خوفك، أخرج سيفك.

لكنه أخذ يحدق بي ببلاهة ويبدو أن الصدمة أفقدته الاستيعاب فأعدتها مرة تلو الأخرى، وأنا أشير نحو خاصرتي بعصبيةٍ شديدة إلى أن ذهبت عنه السكرة، ولم التفت إلى الحشد الجالس خلفي وهم يترقبون لحظة النهاية ونسوا الأمير وانتبهوا لوجودي قرب الحلبة الذي لم يدركه أحد منذ البداية إلا في تلك اللحظة وكأن هذا جعلهم يفيقوا، لكني لم يكن يعنيني في تلك اللحظة سوى حياة الأمير الذي انتبه على صوتي وهز رأسه بالإيجاب والفهم، لكن الأسد عاد للزئير بشراسةٍ ردًا على هتاف الجماهير المتحمسة، فانصرفوا عني لمتابعة الأمير إلا شخص واحد ظل يتابعني ووجهه مُربّد.

استعاد الأمير الصغير روحه مرةً أخرى لما وجد سيفه معلق بخصره ووقف يستعد لمواجهة الأسد، فوجده يقفز في الهواء فتجنب كفه الجبارة ووافاه بضربةٍ من حسامه على هامته أردته أرضًا مضرجًا في دمائه، حاول أن يقاوم بعدها ليقف مرةً أخرى لكن قواه خارت من شدة ما فقد من الدم وزأر لمرةٍ أخيرة فارتج الجميع ثم مات في التو.

سجدت شكرًا لله على فضله، وهلل الجمع غير مصدقين أن هذا الصغير يملك هذا القدر من الشجاعة والفتوة للتغلب على الأسد الذي دوّخ عتاة الرجال، ونزلت الانكشارية إلى الساحة واجتازوا السياج الحديدي ليحملوا الأمير على أعناقهم ويهتفون باسمه وبحياة السلطان، وفي وسط هذه الجلبة فوجئت بكفٍ ثقيلة سقطت على كتفي فالتفت أنظر لصاحبها الذي رحب بي واحتضنني وقبلني بحرارةٍ، وقال لي:

- إدريس، أمير النوبة، كنت متأكد من أنه أنت لكن خشيت أن لا تتذكر صديقك "فرحان".

ظننت أن الجميع نسوا ندائي على الأمير، وانشغلوا بالأمير الصغير مُصارع الأسود الذي سيصبح لقبًا له فيما بعد، لكنه ظل يتابعني من بين هذه الجموع ويراقب عن كثب وبدا مسودًا، إنه إبراهيم باشا الإفرنجي الذي ضاعت فرصته الذهبية في التخلص من غريم ابنه وسمعني أنطق بلكنة أهل مصر وشاهد فرحان معي.

طارت فرحتى بانتصار الأمير أورخان وشعرت بالأرض تميد بي، فآخر شخص توقعت أن أراه هو فرحان الذي يعرف حقيقة شخصيتي، وبعدما هرب من الخدمة بالقصر في مصر رغم أنه كان رجلًا حر يجمعنا الزمان مرة أخرى في إسلامبول ليهدم ما فعلته في سنين، فأخشى ما أخشاه هو الصدر الأعظم الذي كان يتابع بدقة كل ما جرى ويعرف مدى قربي من الأمير أورخان، وأخشى أن يبدأ بالنبش خلفي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

دق الباب فأذنت للطارق بالدخول، فعّرف نفسه بأنه "بهاء" وكيل النيابة، وقد كنت أتوقع حضور "أيمن" صديقنا المشترك، لكنني فوجئت بآخر ولم أكن وقتها على استعداد للنقاش في أي شيءٍ يخص القضية لأنني أريد استكمال القراءة، لكن كان هناك ضرورات لابد منها وبدا من مظهر هذا الزائر أنه شابًا متأنق ومغرور، لذا توقعت أسئلة مملة وتافهة عن سير التحقيقات من شخصٍ دخل إلى مجال العدل والقضاء بفضل الوساطة والمحسوبية، لكن للمرة الأولى تُخطئ نظرتي لأنه بمجرد ما وقعت عيناه على المخطوطة، إلا وشعرت بعينيه تكاد تخرج من محجرها وامتلأت بفضول وكاد أن يتكلم ويسأل عن شيءٍ ما ثم ابتلع كلماته، فبادرته بالسؤال:

- يبدو أنك تحب القراءة.

فوجدها فرصة مواتية فامتدت يده إلى صورة المخطوطة بإعجابٍ فسحبتها من أمامه، ولا أدري لما فعلت ذلك لكن يبدو أنني لم أكن أرحب به، فقال لي:

- أسطورة الأمير الهجين.

اندهشت من الكلمة وسألته:

- هجين!

- نعم، فنصفه مصري والنص الآخر جركسي، سمعت عن أسطورته وكنت أتمنى أن أعرف من آتى بها.

في هذه اللحظة دخل زكريا وبمجرد أن رأى بهاء إلا وصاح في ترحابٍ:

- أهلًا أهلًا، بابن الباشا، كيف حالك؟

علمت فيما بعد أن السر في هذا اللقب أن والد بهاء لم يكن أحد رؤساء زكريا بالعمل كما توقعت لذا ناداه بابن الباشا لكن يرجع الأمر لأصوله الأرستقراطية الجركسية، وبهاء لا يحب ذكر هذه المسألة لأنه يشعر بالحرج، لكن أسرته ما زالت تحافظ على بعض التقاليد القديمة التي يحاول التمرد عليها لكنه لا يفلح دائمًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

الحياة الجديدة

(1)

اجتمع ثلاثتهم واحتدم النقاش حول القاتل، وبهاء ما زال مصرًا على أن سر الجريمة يكمن في المخطوط ومؤمن يرى خلاف ذلك، وأن المسألة أبعد ما تكون عنها، فما علاقة مخطوط عمره أكثر من خمسمائة عام بجريمة قتل حدثت في اللحظة الراهنة!

فرد عليه بهاء بعبارة بليغة:

- الشيطان يكمن في التفاصيل.

- مجموعات الجنود المتراصة

- يقصد السلطان سليم الأول بن بايزيد

كانت هذه العبارة كافية لإنهاء المناقشة لصالح بهاء والبدء في الاعتكاف على نصوص المخطوطة لفهم السر، واضطررت للتوقف عن القراءة حتى يلحقا بي.

وعدنا مرةً أخرى إلى إسلامبول في الثاني عشر من جمادي الآخر لسنة 936 هـ:

- ما كل هذا يا إدريس؟ لم أكن أعلم أن الحياة خارج القصر بهذا الجمال، إنها لحياة جديدة بعيدة عن التعليمات بالقصر السلطاني.

ابتسم إدريس بهدوءٍ وأخذ يعبث بلحيته ولم ينتبه لأفعال الأمير وعبثه، كان غارقًا في عالمه ورّتل([11]) من الأفكار المتصارعة تعبث برأسه ولا تمنحه الراحة وظن أنه قد يجدها في زحام الأسواق، لكنها أبت أن ترحل وتتركه لحاله، ورأسه يضطرب بفكرة الثأر لدم أستاذه، لكن صوتًا آخر يهتف به:

- تنتقم ممنّ ولماذا؟ ومن المستفيد من قتلك السلطان الذي دفع الإفرنج الصليبيين؟!

يهتف به صوت العقل قائلًا:

- لقد مات ابن بايزيد([12]) ، وجانبردي الغزالي استطاع السلطان الشاب سحق آماله وقُطعت رأسه بعدما أثار الاضطرابات في الشام أملًا منه في أن يُعيد مجد الجراكسة، أما خاير ابن ملباى انقطعت أخباره منذ زمنٍ بعيد، وبقية الخونة أيضًا لم يعلم عنهم شيئًا منذ زمنٍ لكن صوت الانتقام لم يعجبه هذا، ورد بخبثٍ رهيب:

- لديك ابنه سليمان، تستطيع بسهولة أن تصل يديك إليه.

سُليمان، سُليمان، تردد صدى الاسم في نفسه ثم هز رأسه بعنف وغضب في نفورٍ من الفكرة لأنه يعلم مقداره، لقد شاهده بنفسه في معركة موهاج كالصقر لا يهاب الموت على صهوة فرسه، يثبت مثل الطود بعزمٍ لا يلين أمام الموجات

المتتالية لأكبر جيش به فرسان مدرعين بالحديد، فتتكسر على سفحه ثم في ساعة واحدة يقضي على ذلك الجيش العرمرم بحيلةٍ بارعة وتدبير مكين،

تتحول كتائب الفرسان المدرعة بالحديد والتي كانت ترعب الجميع إلى فلول مهلهلة تذروها الرياح، ومن بقي منها لم يكن مصدقًا لنجاته، تظل الأفكار تتنازعه حتى أفاق على صوت جلبة، وأحد أصحاب محال الخزف يجري خلف الأمير الذى صوب عليه بالنبل أثناء اشتغاله، فأفسد قطعة الخزف التي كانت بين يديه فخرج يجري خلفه، وعلى الفور قام إدريس من مكانه بقامته الطويلة وخبأ الأمير المشاكس داخل عباءته وذابا في زحام السوق.

تدريجيًا تهدأ الأفكار المضطربة برأسه ويضحكان من قلبيهما على شقاوة الأمير وخفة ظله، لكن الأمير لا يفوته أمرًا فقد سمع الرجل يشتمه لكن بلسانٍ عربي، فسأل إدريس:

- ما الذي قاله لي هذا الرجل؟ إنه لا يبدو لي من سكان إسلامبول.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فابتسم إدريس من نجابة الأمير وأخذ يعبث بلحيته، فوجد دكان شربتلي([13]) فسحبه من ذراعه ليجلسا عنده ويستريحا من جولتهما الطويلة وشقاوة أورخان التي لا تنتهي، فما كان من أورخان إلا أن أعاد عليه سؤاله وكادت الدمعة لحظتها أن تطفر من عيني إدريس، وفوجئ أورخان بمنظر إدريس الذي لم يره من قبل، ربما في بعض الأوقات كان إدريس يجلس هادئًا ويشع الحزن من عينيه وخاصةً حين يعزف على الناي، لكنه على الدوام يرسم ابتسامة هادئة وغامضة، فلا تعرف إن كان راضيًا أم في منتهى السخط، وله عينان واسعتان تلمعا كالكهرمان.

تلقائيًا أخرج أورخان من جيبه قطعة قماش يكفكف بها دمع إدريس الذي اِحْمر خجلًا من دموعه، ثم عاد أورخان إلى معابثته وسأله أن يسرد عليه القصة، وكيف عرف كل صاحب حرفة أو صنعة هنا في إسلامبول، ومتى تعلم عدة لغات!

شعر إدريس وقتها بأنه محاصرٌ ولم يجد مفرًا أمام إصرار الأمير، لكنه قبل أن يقص عليه قصته طلب منه أن يقسم له بأغلظ الأَيْمان ألا يحكِ ما يسمعه لأي مخلوقٍ كان فلو علموا بأمره قد يُقتل، وهنا انتبه أورخان له وكسا وجهه ملامح الجد وبدأ يسرد إدريس للأمير قصة السلطان طومان باي، وكيف

تعرف إليه أول مرةٍ وكيف أكرمه ثم كيف آل مُلك الأمراء المماليك إلى بني عثمان، والتحاقه بخدمة السلطان سليم وسَوُق المخاليق من صُناع وحرفيين وعلماء وذميين وبعض العامة إلى إسلامبول، لعله ينقل بعضًا من سحر القاهرة إلى عاصمته.

يتنهد إدريس بحسرة شديدة ويدعو إلى سلطانه، لكن أورخان ينظر إليه ويقول له:

- إدريس، يبدو أنك تخفي عني شيئًا لكن حسنًا.

ابتسم إدريس فبدا بياض أسنانه وفرح لنجابة الأمير الذى استزاده سؤالًا عن السلطان الراحل طومان باي، وبدأ يحكي له طرفًا مما جرى للسلطان، وكيف اضطرته الظروف أن يتولى منصب السلطنة في ظرفٍ حالك السواد، لكن هذا لم يفت في عضده وتحمل قدره حتى النهاية، وانهار بعدها إدريس في بكاءٍ مرير وحنين رهيب لوطنه، فأراد الأمير أن يبهجه فقال له:

- ما رأيك أن أصوب على هذا الطائر فأقنصه؟

لم يتبين وقتها من الدموع التي أغرقت وجهه الهدف الذي صوب الأمير نحوه، فلما تبين انزعج إدريس وقام على الفور من مكانه وهو يجذب أورخان بعنفٍ شديد، ولم ينتبه أنه لم يدفع للشربتلي ثمن ما شرباه، فنادى عليه الشربتلي فألقى له بقطعة من النقد وسارا سويًا وشعر وقتها الأمير أن تصرف إدريس فيه شيءٍ من العنف الذي لم يعتده منه فتضايق من أسلوبه وجذب ذراعه من قبضته بغضبٍ:

- ما الأمر إدريس؟ ولماذا تجرني بهذه الطريقة، ما الأمر؟

فرد عليه إدريس بغيظ:

- أتعرف ماذا كدت أن تقتل؟!

- إنه مجرد طائر في المدينة لا صاحب له.

فجز إدريس على أسنانه بغضبٍ:

- ستكون تلك آخر مرة أخرج بصحبتك أيها الأمير.

فحزن أورخان ورفض أن يتحرك، فقال له إدريس بهدوء:

- يا أمير أورخان، إنها إحدى حمائم البريد السلطاني، ولو أن أحدًا من بصاصي السلطنة انتبه لفعلتك لكنا الآن في السجن، لأننا لن يتم التعرف إلينا بسبب ملابس العامة التي نرتديها، الآن فهمت سبب انزعاجي وخوفي عليك؟!"

فابتسم له أورخان في محبة، فقد تأكد الآن أن له صديقٌ دائم يهتم لأمره، وعاد الأمير إلى مرحه وأخذ يقص على إدريس الشائعات التي يسمعها تدور في القصر، وحدثه عن رغبته بالالتحاق بأقرب فرصة بالجيوش التي تذهب إلى بلاد الإفرنج.

شعر إدريس وقتها بالتعب وتغير لون وجهه، وطلب من الأمير أن يستريحا قليلًا من التجوال في أنحاء المدينة، ثم أكملا المسير إلى القصر وهو يقرر عدم النزول مرةً أخرى بصحبته بعدما تعب اليوم، لكن بعد عدة أيام استطاع الأمير أورخان الحصول على إذن السلطان بالخروج مرةً أخرى وإقناع إدريس الذي كان عنده النية الكاملة لعدم الخروج، لكنه لم يقدر على مقاومة توسلات أورخان.

هذه المرة اختارا زيًا آخر من أزياء العامة يختلف عن المرة السابقة، وكأن حدس إدريس أوحى له بذلك حتى يتيسر لهما الذوبان في زحام الأسواق بعيدًا عن الأعين المترصدة.

هذه المرة أراد أورخان أن يغوص في قلب العاصمة ويصل إلى أفقر أحيائها، ويتعلم إحدى الحرف، وفي البداية لم يفهم إدريس السر في طلب كهذا، ثم بدأ الأمير يشرح له ما سمعه على يد المُؤدب عن الصحابي الجليل "عمر بن الخطاب" لما وُلي أمر الخلافة كان يسير ليلًا في طرقات المدينة يتفقد حال الرعية وهذا دوره كأحد الأمراء، وإذا رأى مظلومًا أن يرفع عنه الظلم، فسعد كثيرًا إدريس بكلام الأمير الصغير وأكبره، ثم عاد يسأله عن الحرفة:

- وما سر الحرفة يا أمير؟ ألست أميرًا؟!

يرد عليه الأمير في ثقة:

- لابد لكل واحد منا أن تكون له حرفة يعتمد عليها، فماذا لو تخلى عني الملك يومًا فلا مُلكٌ دائم ولا عزٌ مقيم، وبهذا سأكون قادر على الاختلاط بالعوام بلا خوفٍ أو خجل، ومولانا السلطان وكل من سبقوه كان لكل منهم حرفته.

أقبل إدريس على الأمير يُقبل رأسه في حنوٍ وقد أكبره أكثر وأكثر، وقررا أن يذهبا إلى السوق المسقوف حتى يختارا الحرفة التي عليه تعلمها، وفي بادئ الأمر ذهبا إلى أسطى "العقاديين"([14]) لكنه لم يرتاح بهذه الحرفة التي تحتاج إلى صبرٍ طويل وبصر نافذ، فقررا تركها والذهاب إلى أسطى

صناعة الخزف فلم يحبها بالمرة، ثم النجارة، فالحدادة، والصياغة، والرخام، ثم خِطاطا، إلى أن توقف أورخان أمام أحد الحوانيت يشاهد صانع السبح يقوم بتدوير قطعة

العاج بصبرٍ شديد وإناءة، ثم بدأ في ثقبها على مهلٍ حتى يتم ادخال الخيط فيها، وهو يتأمله في انبهار، حتى أشفق عليه أحد العاملين فناوله كرسيًا فجلس عليه، ولما انتهى الأسطى ابتسم للأمير، وقال له: - ما رأيك يا ولد؟

فابتسم له الأمير، وقال له:

- هلا علمتني يا عمي، كيف أصنعها؟

فنظر نحوي الأسطى "إسماعيل" وسألني:

- أنت المسئول عنه؟

فأشرت بالإيجاب، فلم يتكلم كثيرًا وعلم أنه ابن واحد من الأكابر أراد أن يُعلم ابنه صنعة ما، لذا لم يمانع وبدأ في تعليم الأمير الصنعة ولا يدري إدريس ما الذي جعله يفعل هذا لأن الأسطى إسماعيل معروف عنه أنه صعب المراس ولا يقبل تعليم أحد الفتية إلا بعد طول اختبار، وكانت سمعته تسبقه في القاهرة بأنه أشهر وأمهر صُناع السبح، لكنه هذه المرة وافق على قبول الأمير أورخان على الفور ولم يناقشه أو يسأله ما قصته أو من أين أتى ولا حتى ما قرابته بإدريس، لكنه اشترط الالتزام على أورخان، فوعده أن يأتي إليه يومًا ويغيب يومًا لظروف خاصة به، فلم يناقشه رغم أنهم في تلك الأيام من شهر جمادي بدأت إسلامبول تتنسم رائحة الشهر الفضيل وتتزين استعدادًا لاستقباله والأسواق أخذت الحركة فيها تنتعش وسيقبل الناس على شراء السبح وخاصةً المصريين منهم المقيمين في إسلامبول، لأن هذا يُحيي ذكريات حياتهم السابقة، إنه الحنين الذي يجرف قلوب أهل مصر بعدما جاءوا إلى إسلامبول سَوقًا مُجبرين بسبب قرار السلطان سليم، ثم لما عادوا إلى القاهرة ووجدوا الظلم فيها شائعًا فاضطر جزء منهم للعودة إلى إسلامبول وانقطعت صلتهم بأوطانهم وأهليهم، دائمًا ما تدمع عينا الأسطى إسماعيل كلما جاء ذكر القاهرة وأهلها ويترحم على السلطان طومان باي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيخفي دمعه في ردنه لكنه لا يخفي عن إدريس الذي يشاركه نفس الحالة فهما كنَبْتَةٍ عاشت بعيدًا عن أرضها، ثم ينظر نحو إدريس ويقول لي أنت تُذكرني بأحد الأشخاص في مصر لكننا لم نتحدث إلى بعضنا قط، فيبتسم إدريس في غموضٍ ولا يرد وأورخان يتابع عمله في هدوءٍ بدون أن يتكلم أو حتى يلتفت، لكنه بات متأكدًا من أن إدريس يخفي أمرًا كعادته، لكنه صار أكثر صمتًا مما مضى وقد قرر دفن سر الأمير في قلبه، فما الفائدة من العودة للانتقام ممن خانوا السلطان! من ذا الذي سيصدق قصتهم ويساعدهم من الأمراء المماليك الذين تخلوا عن سلطانهم وقبلوا ذل مصالحة بني عثمان وتقاسم الحكم معهم، وقد كانوا قبل سابق لهم كامل الأمر والنهيٍ، فما بالك أنه لا أحد يعلم بأن السلطان طومان باي له ولدٌ من زوجة ثانية، ويعود إدريس محدثًا نفسه عن حبه للأمير الذي لن يرضى أبدًا بأن يُلقي به إلى التهلكة بعدما رأى خساسة الأمراء المماليك فيَلقى مصير أبيه، لقد وجد الأفضل أن يكبر بعيدًا عن الفتن وما أحوج الخلافة لمثله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

تأتي الريح بما لا تشتهي السفن وينتهي شهر رمضان، وتبدأ أول أيام العيد ليُهدي الأمير أورخان للسلطان سليمان أول سبحة صنعها، ليفاخر بها السلطان أمام حاشيته وينعم على الأمير الصغير ويعاتب محمد ابن صهره الذي لم يتعلم بعد حرفةً يدوية لأنه يأنف الأمر، وتتحرك أحقاد إبراهيم باشا الإفرنجي وتعود هواجسه للظهور من جديد ويرى إدريس الغيظ والضيق يبدوان في عينيه.

لم يكف أورخان إغاظة الأمير محمد بل بدأ يوجه مشاكساته تجاه كل أميرٍ متكبر يعامل إدريس أو أي شخص بسيط بأنفه فيؤدبهم بتدبير الحيل والمقالب ليحرجهم أمام الجميِّع، وأثار هذا الأمر استياء مُؤَدِب القصر الذي كان يحب أورخان لنجابته

لكنه لا يعجبه شغبه وصخبه، كذلك شكا منه معلم الفروسية بسبب رعونته، وبدأ إبراهيم باشا الإفرنجي يمارس دوره الخفي وأوحى إلى السلطان بأن يسمح لأورخان بالذهاب مع الجنود للاستفادة من شجاعته وهو مُصارِع الأسود، خاصةً بعدما ساءت سلوكياته، وفي الحرب سوف يتعلم الانضباط ويكف عن عبثه، في البداية لم يحبذ السلطان الفكرة لحداثة سن الفتى لكن المكيدة لعبت دورها، وللمرة الثانية يُغري الصدر الأعظم الأمير أورخان ليخرج على السلطان مستعرضًا فروسيته أمام جميع أفراد الحاشية في منافسة بين الأمراء الصغار، ليتغلب أورخان على الجميع في مسابقات النشاب والتصويب بالقوس والمبارزة، ثم يعتلي صهوة جواد شرس بمنتهى المهارة مُطوعًا إياه تحت قيادته ويحمل نشابه ليخرق بها الشجر، فيصفق الجميع له على هذه الشجاعة الغير مسبوقة.

يظل السلطان سليمان على تردده بعض الوقت، فقد كان السلطان حصيفًا لكنه أدرك بفطنته أن العش ضاقت والفرخ الصغير يشتهي التحليق بعيدًا وسوء الأخلاق الذى أبداه مؤخرًا ما هو إلا رسالة تمرد مكتومة يريد بها أن يلفت بها الأنظار إليه، وقد وعي السلطان منذ فترة ويعلم برغبة الأمير الصغير بالخروج إلى ميدان الجهاد ليثبت كفاءته، لكنه يخشى عليه فما زال غض العود.

في النهاية تستمر توسلات أورخان المصحوبة بتوصيات الشيطان إبراهيم باشا الإفرنجي الذي حبذ الفكرة وحببها إلى قلب السلطان، حتى رضخ لمطالبهم بعدما ضرب له مثلًا بالصحابي "أسامة بن زيد" الذي قاد جيشًا من كبار الصحابة في عمر الثامنة عشر ليقاتل الروم أكبر قوة بالعالم وقتها، فكان هذا المثال كافيًا لحسم الجدال وشجع وقتها السلطان وأبطل ما رآه مانعًا من إرسال الأمير الصغير للحرب، وقد طمأنه إبراهيم باشا أنه سوف يوصي القائد الذى تحت إمرته عليه أن يوجهه ويعلمه برفق، وطالما أن الصيف اقترب فهي فرصة طيبة لبدء حملاتهم على الإفرنج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

أمير الأورطة

(1)

ظل يروغ رواغ الثعالب ولم يرتاح له بالًا لأنه يريد التخلص من الأمير بأي شكلٍ من الأشكال، منتظرًا قدوم الصيف بفارغ الصبر حتى يرسل الأمير إلى القتال، وفرح كثيرًا عندما علم باعتداء إحدى القبائل على بعض القرى الحدودية، وتمادوا في غيهم حتى أغاروا على مدينة "تبريز" ([15]) وهذا ليس إلا من دس "الشاه الصفوي" المتربص بهم، واستلزم الأمر إرسال قوة لتأديبهم حتى يفهم الشاه الرسالة فوجدها إبراهيم باشا الفرصة الذهبية للتخلص منه بإرساله لميدان المعارك، وربما أمكنه هناك دس من يتخلص منه ويرتاح باله إن لم يلق حتفه في المعارك الضارية، خاصةً أن قائد تلك الفرقة معروف عنه العنف والتهور واسمه "مصطفى البوشناقي"([16]) الشهير بين جنوده بلقب "مصطفى المجنون" لشجاعته وشدة تهوره في الحروب الذى يصل أحيانًا إلى حد الجنون، وربما هذا ما كان يعجب جنوده برغم قسوته وشدته معهم، ومما يُروى عنه أنه لما كان بصحبة السلطان سليمان في معركة موهاج قاد فرقته لاقتحام صفوف الفرسان المدرعين بالحديد، فصنع موجة من الهرج والمرج بصفوف العدو ثم نزل مترجلًا بين الخيل يضرب أعقابها، فأسقط الكثير من الفرسان من على سروجهم غير مبالٍ بنفسه وأنه قد يُلقي حتفه بسبب هذه الفعلة المتهورة تحت سنابك الخيل التي أصابها الهياج.

إن كانت الحياة خارج القصر السلطاني وتَعلُم صنعة السبح هي الحياة الجديدة بالنسبة له فالحياة بين الانكشارية شيءٌ مختلف بالمرة، فهم أسرة كبيرة يجمعهم قزان([17]) واحد وهو وعاء الطعام الكبير، وهم جميعًا متعاونون متضامنون كأنهم أسرة واحدة والأغا هو قائدهم الأكبر سنًا والأقدم الذي يتحركون بإمرته، وهم دائمًا منضبطون ومستعدون للتضحية بأنفسهم من أجل سلطانهم الذي أقسموا له بالولاء.

ظلت المحبة التي على وجهه ملازمة دومًا له، وكل من يراه ينشرح له صدره بما في ذلك البوشناقي المجنون الذي قام لتحيته وربت على كتفه بترحابٍ شديد وعرّف أفراد الأورطة([18]) به وقص عليهم سابق معرفته به لما ضرب هامة الأسد بسيفه فانفلقت وتفجر الدم منها وسقط على الأرض، فأوقف نزيف الرجال الذي كان سيظل مستمرًا لو لم يقتل هذا الأسد.

احمر وجه الفتي الصغير خجلًا لأنه لم يتوقع هذا الثناء البالغ وهو جديد بين هؤلاء الرفقاء الأشداء ذوي الشوارب الضخمة والسواعد المفتولة، وهو بينهم كالطفل أمرد اللحية، لكن ممازحتهم له مثل أخٍ أصغر لهم كسرت الرهبة بقلبه، عَهِد مصطفى به إلى أقرب رفقائه عمرًا وهو "علاء الدين" ليشرح له طبيعة الأمور، واستعدوا للتحرك في الصباح إلى تبريز لتأديب القبائل المتمردة.

في الصباح بدأت الأورطة في التحرك نحو هدفها المنشود من أجل مساندة الحامية الحدودية الموجودة هناك، وكانوا بحاجة لشهرٍ على الأقل للوصول إلى هناك طالما أنهم لم ينقلوا المدفعية الثقيلة لتصبح حركتهم أخف.

سعادة أورخان كانت لا تضاهيها سعادة لأن السلطان صار يثق به وألحقه مع فرقة الأغا الشهير مصطفى البوشناقي الذي تَحاكى بشجاعته وهمته الجيش العثماني كله، وعلم بخبره من إدريس الذي

أوصاه بأن يثبت جدارته ولا يخيب ظن السلطان فيه، لذا ومن اللحظة الأولى لوصوله إلى المعسكر وطّن نفسه على تحمل المشاق والصعاب بعدما ودع إدريس وحياة القصر الوادعة.

بدأ الأغا مصطفى يلاحظ أن أورخان اندمج مع الرجال بل يتطوع دائمًا لأداء أصعب المهام، مثل جمع الحطب وإشعال النار للمعسكر واختيار نوبات الحراسة الليلية ويشفق عليه رفقائه لصغر سنه، فهو برغم بنيانه القوي ما يزال فتى غض العود يبدو ضئيلًا بين هؤلاء الفطاحل ذوي الشوارب الكثة والعضلات الضخمة، لكن أعجبهم إصراره وسعيه لإثبات جدارته بينهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أكثر ما أعجب به أورخان في حياة الانكشارية هو أنهم جميعهم أخوة سواسية في كل شيءٍ، لا يوجد بينهم أنفة أو تعاظم مثل الأمراء الصغار بالقصر السلطاني ولعل ما جمعهم هو الغربة، فقد أتوا من عدة أصقاع ففرضت عليهم هذه الحياة التعاضد والتعاون، فتذكر أحاديث إدريس عن العيشة التي يحياها المماليك في البداية ثم بعدها كيف تحولوا إلى أمراء، فلم يرَ اختلافًا كبيرًا بينهما فكلاهما أتى من بلادٍ عديدة ثم جمعتهم الجُندية والجهاد، ثم هتف في خياله "إدريس" لقد اشتاقه كثيرًا ويا تُري ما هي أخباره، ثم هتف في نفسه مرةً أخرى:

- كم كان هذا الرجل غريبًا!

غاب أورخان في دوامة أفكاره الطويلة التي لا تنتهي طوال مدة سفره من إسلامبول إلى تبريز يحاول سبر أغوار الماضي بعد أسئلة وحكايات علاء الدين له عن حياته السابقة، وأن أبيه وأمه تُوفيا بسبب إحدى الغارات على قريتهم فتربى صغيرًا في معسكرات الانكشارية، وكبر في خدمة السلطان وهو ينتظر أن يأتي دوره ليثبت جدارته ويرتقي ويصبح أغا مثل مصطفى، وتركه علاء الدين دون أن يدري أنّ قصصه تلك جعلت أورخان يغرق في خضم بحرٍ من الأفكار الشاردة التي يحاول ملاحقتها وهو ينظر إلى الخلاء المحيط به، بعدما سمح له الفراغ وطول السفر بالتفكير في كل ما عاشه ورآه أمرًا مسلمًا به في حياته، فأباه قائدٌ عظيم خدم السلطان سليم بحياته، لذا فقد أوصي بأن يُربى بين الأمراء الصغار لكن أحدًا في القصر لم يأتِ لذكر أبيه مطلقًا أو أية واقعة عظيمة خاضها مع السلطان، أما أمه فقد ماتت أثناء ولادته لكنه لم يعرف لنفسه أهلًا، لا من ناحية الأم أو الأب!

لم يعرف له أبًا سوى السلطان مثله كبقية الانكشارية، الشخص الوحيد في حياته الذي عُنى لأمره وتعهده الرعاية والحماية هو إدريس، فلا يذكر أنه ضاق به يومًا برغم أفعاله التي توقعه فى الكثير من المتاعب وتعرضه للوم والتوبيخ بسببه، لقد كان إدريس دومًا بجواره لم يتركه لحظة، بل هو مدين له بالفضل عندما أنقذ حياته في حلبة القتال عندما كان يواجه الأسد، لكنه في الفترة الأخيرة أصبح شاردًا صامتًا بشكلٍ مريب كمن يخفي عنه سرًا ما ولا يريد أن يبوح به، وكلما أتت سيرة السلطان طومان باي تنزل دموعه في صمتٍ وخاصةً بعدما تتلمذ على يد الأسطى إسماعيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

بعد طول مشقةٍ وصلت الأورطة إلى حدود مدينة تبريز لملاقاة الحامية المتواجدة هناك، ولم يعد هناك مجال للمزيد من الأفكار التي أنهكته، فقط عليه أن يركز على كل ما تعلمه في فنون القتال والفروسية لكي يكون قادرًا على إثبات جدارته فهو لن يقدر على العودة إلى السلطان إلا ظافرًا، وبالتأكيد أن إدريس أيضًا يضع عليه أمالًا عظيمة كمثل باقي أقرانه منذ واقعة الحلبة.

سلم الأغا مصطف على قائد الحامية الذي شرح له طبيعة الموقف، وأن القبائل المتمردة تُغير عليهم في الليل وتعتمد على الكر والفر السريع، وعندما يبتعد رجاله بمسافةٍ طويلة يبدأون هجومهم وقد فقد عددًا من رجاله بسبب هذا، لذا فهو أصبح لا يخرج بعيدًا عن المدينة وأحيانا يذهب إلى بعض القرى المحيطة لحمايتها، لكنه لم يقدر على القضاء على الخطر بسبب تنقل القبائل هذا من مكانٍ لآخر.

عقد مصطفى البوشناقي مجلسًا للحرب للتشاور مع قدامي الانكشارية في أورطته ومعهم قائد الحامية وأورخان، وأخبرهم بنيته في الذهاب إلى أماكن تجمعات القبائل المتمردة وقصفهم بالمدفعية لتشتيت شملهم، ووافقه الجميع عدا أورخان الذي رفع يده معترضًا بعدما ارتأى أن هذا يعني قتل المزيد من الأبرياء ودفعهم للمزيد من الأعمال الانتقامية، لكن الأفضل نصب فخًا لهم، وليس هناك أفضل من الاحتفال القادم للحصاد فهذا بالتأكيد سوف يمثل مصدر إغراء لهم وطُعم مناسب، ولما انتهى من كلامه فوجئ بصمت الجميع ونظراتهم متجهة إليه حتى شعر بأنه تجاوز حده، لكن مصطفى البوشناقي ضربه على كتفه بمحبةٍ وقال له:

- نِعم القول يا فتى.

وهتف الجميع بحياة السلطان وتجهزوا لنصب الفخ، رجال الحامية في أماكنهم وتظاهر أفراد الأورطة بأنهم أصابهم الملل وسيرحلون عن القرية، حتى يعطوا جواسيس وعيون هذه القبائل المتمردة الشعور بالأمان، وعسكروا في مكان يبعد عن المدينة بضعة فراسخ وحرم عليهم وقتها الأغا مصطفى إشعال أية نيران حتى لا يلفتوا إليهم الأنظار.

في مساء أحد الأيام التي كان القمر فيها بدرًا ظهر غبار كثيف في الأفق ونيران مشتعلة قرب وقت الفجر تقترب من تبريز وعلم مصطفى البوشناقي وقتها أنهم سقطوا في الفخ المنصوب لهم، لكنه ينتظر إشارة إطلاق صوت مدفع من الحامية، بمجرد أن ينطلق سوف يخرج رجاله من بين الجبال للقبض على المتمردين، فيضربون عليهم بالمدفعية حتى يدفعونهم إلى المكان الذي نصبوا فيه العديد من الفخاخ للإجهاز عليهم وإرسالهم إلى إسلامبول.

أفلحت خطتهم وآتت ثمارها لكن غباء مصطفى البوشناقي وإصراره على القبض على الفلول الهاربة وتضييق الخناق عليهم جعلهم يعيدون تنظيم صفوفهم لمعاودة الهجوم مرةً أخرى، فقد صارت مسألة حياة أو موت وكان مخزون قذائف المدفعية قد انتهى وصار الموقف لصالحهم نظرًا لأعدادهم الكبيرة فمالت الكفة نحوهم، لكن أورخان المندفع دائمًا تبع الأغا مصطفى وانطلق صوب صفوفهم لكي يضرب أعقاب الخيل لتشتيت فرسانهم، وقد أفلحت الخطة لكنهما عندما حاولا إعادة الكرة اشتبك أحدهم مع أورخان وضربه بحربةٍ لم تصبه لكن نصلها كاد أن يخترق زرده الحديدي([19]) فأسقطه

أرضًا عن حصانه وأحاطوا به، فالتقط رمحًا من على الأرض وبدأ يقاتلهم وهو راجل ومُحاط بهم، ورغم أنهم على ظهور جيادهم نجح في إسقاط اثنين منهم، فعاد إليه قائدهم ونزل عن حصانه واشتبك معه في مبارزة حامية، جرح كلٌ منهما الآخر لكن قائد القبائل إصاباته كانت أشد، ومع ذلك لم يفكر بالاستسلام وظل يقاتل حتى استطاع مغافلته والتقط دبوسًا([20]) من الأرض ثم ناوش أورخان بسيفه، فلما التفت ناوله ضربةً قوية على ضلوعه لكن أورخان كابر بعنادٍ رهيب في محاولة أخيرة للقضاء على خضمه بضربةٍ قاضية، لكن خضمه استطاع تفادي الضربة والتفت ليكيل له ضربة بالدبوس على جنبه الآخر فتفاداها، فكادت الضربة أن تُهشم رأسه وأغشي عليه.

حدث اضطراب وبلبلة بين صفوف الانكشارية لسقوط الأمير وهرب رجال القبائل المتمردة، لكن علاء الدين تمكن من إسقاط زعيمهم بسهم أصابه في فخذه وأخذوه أسيرًا مع من سقطوا في الفخاخ المنصوبة، وظل الجند في حالة استنفار استًنادًا لأي غارة جديدة.

ظل علاء الدين بجوار أورخان لم يتركه لحظة مع الطبيب المعالج منتظرين أن يفتح الأمير عينيه، فقد أيقن الجميع أنه قد مات بعد تلك الضربة القوية التي تلقاها على رأسه فأغشته، ولم يصدق الطبيب أن الأمير بخير حال وقد اعتدل في جلسته فوجد ضلوعه ملفوفة برباطٍ قوي ورأسه أيضًا، فبدأ يسأل عما حدث له وقص عليه علاء الدين ما جرى وأنه كانت رجال الانكشارية تنوي الفتك بهذا الرجل، لولا أنهم آثروا انتظار إفاقته حتى يُحكم في أمر أسره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

طلب الأمير ماءً للوضوء فحذره الطبيب بشدة من أن يُطال البلل الرباط المحيط برأسه لأن الجرح عميق، فلم يناقشه أورخان كثيرًا وتوضأ بحرصٍ شديد ثم صلى وتناول وجبته، فأحس بأنه بدأ يستعيد نشاطه لكن للمرة الثانية يحذره الطبيب من الحركة وأن عليه ملازمة الراحة لأسبوع على الأقل ليرى

بعدها مقدار التحسن، فأمر أورخان بإحضار الأسير إلى خيمته فساقوه مكبلًا بالحديد إليه فطلب منهم فك قيوده، وسأله عن سر قيامه بالغارات على الآمنين فقال له:

- يا مولاي الأمير أعز الله مقداركم، لقد ساءنا ظلم الوالي الذي ضيق علينا وأرهقنا بالضرائب، فلم نجد ما نُطعم به أطفالنا سوى الإغارة على مخازن القمح والشعير.

كان أورخان ينظر إلى عينيه أثناء كلامه ولم يحر ردًا، ثم صرفه وتشاور مع الأغا مصطفى فهو الأكبر سنًا والقائد الفعلى للأورطة، وأخبره بما يرى وأنه لن يقطع أمرًا قبل الرجوع إليه، تردد كثيرًا مصطفى في الرد، فهو يخشى أن يعفو عن الرجل فيغريه كرم الأمير ويتمادى، ومن ناحية أخرى يشعر بالظلم الواقع على هذا الرجل البدوي الذى اضطرته قسوة الحياة الجبلية للإغارة، ثم قال للأمير:

ذ- افعل ما تراه يرضي ضميرك، فأنا أثق بحسن تصرفك.

فابتسم له أورخان ثم أمرهم بأن يأتوا بالرجل من الحبس، ففكوا قيوده وأمر له ولقبيلته بما يكفيهم من القمح والشعير، وأخذ عليه موثقًا بعدم الإغارة مرةً أخرى على القرى الآمنة، وأخبره بأنه أرسل إلى السلطان ويستأذنه لكي يستبدل الوالي الظالم، فامتن الرجل كثيرًا للأمير الذي كان كريمًا معه ونسي منه محاولة قتله، لكن بقيت مشكلة واحدة أن الطبيب بعد مرور أسبوع على بقاء أورخان ملازمًا الراحة وجد أن من الأفضل له أن يعود لكن محمولًا على عربة تجرها الخيل، لأنه لن يقوى على الركوب بسبب ضلوعه المكسورة ورأسه الملفوفة برباطٍ، وهو بحاجة للمزيد من الرعاية التي لن يجدها إلا في إسلامبول، لكن الرجل البدوي عرض على الأمير وقتها أن يرسل له طبيبًا من قبيلته ليصنع له وصفةً طبية تساعده على استعادة حيويته ونشاطه حتى يتحمل السفر البعيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

ساعدت كثيرًا وصفة الطبيب العراف البدوي الذى أطال النظر إلى الأمير ثم أخبره بأن حياته سوف تمتلئ بالأحزان لكن عليه التجلد والصبر، ويبدو أن هذا الرجل كان يمارس شيئًا من التنجيم لكن الأمير نهاه عن ذلك، وتم تجهيز عربة تجرها الخيل لنقله إلى إسلامبول مرةً أخرى، فتهلل السلطان كثيرًا لعودته لكنه هاله الحالة التي رآه عليها وأشفق عليه كثيرًا، فأمر بإحضار مجموعة من أطباء القصر لعلاجه فورًا ومتابعة حالته وتركه لكي يرتاح، لكن الأمير أصر أنه يريد العودة مرةً أخرى لحياته، لكن إبراهيم باشا الإفرنجي أصر على مكوثه ملازمًا للراحة حتى يستعيد نشاطه مرةً أخرى، وأيد كلامه مجموعة الأطباء الذين حضروا على الفور تلبيةً لأمر السلطان، وأمروه بالراحة لمدة شهر ومنعوه من ركوب الخيل أو التعرض للشمس بشكل مباشر حتى يلتئم الجرح الذى برأسه، لأن الإصابة خطيرة.

سَر السلطان كثيرًا شجاعة الأمير الصغير وحُسن تصرفه، فبعد هذه الحملة لم تسجل أي إغارات جديدة على القرى التي تقع على أطراف الخلافة بفضل حُسن تدبيره، لأنه بما فعله استطاع تحييد ولاء هذه القبائل التي تعيش في الجبال، ثم أمر السلطان بالإنعام على أفراد الأورطة.

مرت الأيام سريعًا وإدريس يلازم الأمير أورخان ومعه مجموعة أطباء القصر، بدأت ضلوعه تلتئم ويسهل عليه الحركة لكنهم شددوا عليه في مسألة ركوب الخيل والتعرض للشمس برغم التئام الجرح برأسه، وكان لديهم مخاوفهم لكن الأمير بطبيعة الحال كان عنيدًا ويرفض نصائح الأطباء، كما أنه ضاق ذرعًا واشتاقت نفسه للتجول في شوارع وطرقات إسلامبول وزيارة الأسطى إسماعيل صانع السبح، لم يكن يريد العودة للأمراء الصغار رغم أن بعضهم حافظ على العشرة وجاء لزيارته في غرفته عدة مراتٍ للاطمئنان عليه، ليجدوا إدريس دومًا في خدمته، لكن إدريس دائمًا يرفض النزول.

- إدريس، هيا يا إدريس، كفى من فضلك، أريد الخروج لقد مللت من المكوث بغرفتي وعلاج الطبيب.

- لكن يا أمير، الشمس مرهقة هذه الأيام وسوف تتعبك، ألم تسمع ما قاله الطبيب؟!

- وما نفع كلام الأطباء وأنا طبيب حالي، إن بقيت أكثر من ذلك سوف أمرض بحق، فإن أبيت المجيء معي خوفًا من تأنيب السلطان لذهبت وحدي.

اضطر إدريس للرضوخ لتهديدات الأمير لأنه يعرف عناده، لكنه لحسن الحظ ظل يماطله حتى أذان العصر فصليا ثم انطلقا كانت الشمس وقتها قد هدأت، وهناك على بعد عدة فراسخ من القصر بجوار ساحة مسجد "أيا صوفيا" الشهير ضحك إدريس وهو الذي لم يضحك منذ عدة أشهر، ضحك ثم ضرب كفًا على كف، فاندهش من حاله الأمير الذي لا يدرى ما الذي أعجبه في هذا الرجل الذى يعرض على العامة الألاعيب وأمور خفة اليد.

أخذ ينادي:

- تعال، واقترب، هنا الحاوي هنا الأعاجيب ولا سحر الهند ولا الصين، هنا سترى ما لم ترَه العين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن

المرجاوي ولوزة

(1)

أحاط به العامة والتفوا حوله في دائرة لمشاهدة ألعابه وأفعاله العجيبة منبهرين به، فهو تارة ينفث النار وأخرى يأكلها، ويقضم الزجاج بأسنانه ويبتلع السيوف ويخرجها دون أن تسيل نقطة دماء واحدة ويلعب بالحراب، الكل مستمع ويصفق في سعادة، خلا شخصًا ينظر بتململٍ شديد ولا يرى فيها جديدًا، حتى أن إدريس لاحظ انصرافه عن الألعاب.

فأخذه بعيدا عن الحلقة وحاول أن يفهم منه سر الهم والكرب الذى أحاط به، فهمهم وغمغم بضيقٍ وقلق، فأثارت حالته قلق إدريس الذى بدا ذلك واضحًا على وجهه، فهو لأول مرة يراه على هذه الحال فسأله مرةً أخرى:

- ما الأمر؟ هل تعبت من المشي؟ أم أن وقفتنا بالشمس أتعبتك؟

فقال له الأمير:

- لا أدري، لكنني أريد حياتى القديمة.

ارتاب إدريس من حالة التشكك التي انتابت الأمير وحديثه، وخشي أن يكون الأمير مرهق صحيًا، فأخذه وأجلسه في مكانٍ ظليل، فباغته الأمير بسؤاله:

- إدريس، ألم يكن أبي قائدًا عظيمًا في خدمة السلطان؟ فلماذا لم يحُدثني عنه أحد؟ وأمي ماتت، فأين بقية أهلي؟

انعقد لسان إدريس من المفاجأة ولم ينقذه سوى الحاوي ([21])، الذي اقترب منهم وهو يمد يده بمنديلٍ يجمع فيه ما يجود به جمهوره، وطلب من إدريس أن يعطيه مما أعطاه الله، فابتسم له وأنقده برضا، ثم اقترب من الأمير الذى أشاح عنه فاغتاظ المرجاوي منه وقال له:

- على راحتك، ثم عاد إليه ليعرض عليه عرضًا: سأُريك حيلة إن أعجبتك تدفع لي، وإن لم تعجبك تنتهي المسألة.

نزع المرجاوي خنجر الأمير ثم بحركة خاطفة اختفى خنجره والغمد، فحاول الأمير تفتيش المرجاوي لكن عبثًا لم يجد شيئًا، فتحرك المرجاوي بخطواتٍ رشيقة نحو الحشد الواقف والأمير يتبعه بذهول، ثم رفع عقيرته بالنداء:

- النار ما تحرق مؤمن، صل على الرسول، وخطا إلى داخل حلقة عظيمة من النيران برفقة لوزة زوجته وخرج منها بدون خدش، ثم ذاب بين الجموع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

لما أفاق الأمير من ذهوله نظر بغيظٍ إلى إدريس، ثم انطلق يجري في شوارع إسلامبول يمشطها أملًا في أن يجد ذلك المرجاوي، لكنه تبخر بقدرة قادر ولم يعد له أثر، وظل الأمير لعدة أيام يخرج متنكرًا بزي العامة ينشد ضالته، وعندما مل من الأمر زاد حنقه وغيظه وأخذ يلوم إدريس، الذي كان يضحك وكأن الأمر لا يعنيه ويقول له:

- لا تعاتبني يا أمير، أنت اتفقت معه ووافقت على الاتفاق، فلا تلومن إلا نفسك.

اشتد غيظ أورخان وظل يضرب الحائط بقبضته، وهو يتميز غيظًا لأن هذا الخنجر كان له قيمةً كبيرة عنده، وخاصةً أنه أول غنيمة يحصل عليها بعدما قاد الأورطة في تبريز واستطاع القضاء على المتمردين، فماذا لو سأله السلطان عنه بماذا سيرد عليه، لكنه متأكد أن إدريس يخفي عنه سرًا لذلك هو هادئ وغير مبالٍ.

ابتسم إدريس للأمير في ثقةٍ في محاولة للتخفيف عنه:

- هون عليك ولا تقلق، سأجد المرجاوي في غيابك واسترجع خنجرك منه.

يجز الأمير على أسنانه ويزم شفتيه أثناء حديثه:

- حسنًا يا إدريس، حسنًا، سوف استعد للسفر برفقة الأورطة وأترك لك الأمر، فليس عندي وقت لألعاب الأطفال.

تغير وجه إدريس وبدا عليه الضيق بعدما سمع كلمات الأمير وشعر باختلاف في المعاملة لم يعتده من قبل، أحس بنوعٍ من الجفوة والبرود، لكنه تحاشاه في ساعة الغضب واستأذن بالانصراف، شعر أورخان لحظتها أنه يريد أن ينادي على إدريس لتطييب خاطره ثم عدل عن فكرته وأغلق خلفه الباب، وجلس يفكر في كلام علاء الدين وكيف أن إدريس كان سيخرج عن صمته لولا ذلك الحاوي المأفون.

كان لا يدري وقتها هل هو غاضب لأن هذا الحاوي قاطع كلامه مع إدريس الذى كاد أن ينطق، أم أن سر غضبه لأنه أشعره بالبله والغباء واستولى على خنجره ثم تبخر بخدعة لم يفهم كيف فعلها، فقد دخل إلى النيران المشتعلة وخرج من الناحية الأخرى من دون خدشٍ واحد، وظلت الأفكار تتقلب في رأسه حتى نام يحلم بالذهاب إلى بلاد "الأفلاق والبغدان "([22]) التي سمع عنها كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

الحقيقة أن إدريس يعرفه تمامِ المعرفة بل لم يغب عن عينيه لحظة، منذ وصوله إلى القصر السلطاني، حتى التقيا فيه صدفةً منذ عدة سنوات وكلٌ منهما عرف صاحبه وأدرك إدريس حينها حجم خطورة تواجده بالقصر لأنه ما زال متهورًا مثل أيام شبابه، وقد يُسول له عقله بقتل السلطان سليم بن بايزيد، لذلك كان دائمًا يضعه تحت عينيه حتى تأكد حدسه وكاد المرجاوي أن يفعلها!

يومها حاول إدريس إثنائه، ولما فشل في هذا تشاجرا بعنفٍ ووبخه المرجاوي بقسوةٍ في محاولة لاستنطاقه ليفهم سر دفاعه الخفي عن غريمهم، لكنه أبى أن يشرح له السر الذي يخفيه ومنعه عن قتل السلطان، حتى أنه قال له لكي تدخل إلى السلطان فعليك أن تمر من فوق جسدي، ولم ينس المرجاوي يومها نظرة التصميم في عيني إدريس، لذا قرر بعدها الهرب من القصر فقد مل حياة الذل التى لم يعتدها وهو المرجاوي سيد الجبل، الذى كانت الصليبية وسوق السلاح وما جاورها من الأحياء تهتز لسطوته، أبعد كل هذا يخدم بقصور العثمانيين؟

ثم يرى الرجل الذي أذلهم ليأتي إدريس ويمنعه عنه، لكن لعل ما أثار غضبه أكثر هو السر الذي يحويه إدريس بين ضلوعه ويرفض أن يصرح به، لذا لعب الشك برأسه وخاصةً بعدما رأى الأمراء المماليك يسلمون بلادهم لبني عثمان وتركوا العامة تواجه جيوش العثمانيين الجرارة ومعهم "السلطان الشريف"، الذى سلموا رقبته للمشاعلجي وظلت جثته معلقة لثلاثة أيامٍ فلم يجرؤ أحدٌ على الاقتراب منها، حتى أمر ابن بايزيد بتكفينها.

كان إدريس يعرفه جيدًا ويعلم كيف يفكر، وحياته السابقة تفرض عليه التشكك دائمًا لأنه كان واحدًا من العياق يسرق من الغني ليعطي الفقير، وقد عاث فسادًا في القاهرة ولم يرجع عن غَيهِ إلا بعد فتوى الشيخ "محمد الهواري" الذى أقنعه بجُرم ما يفعله، وارتاح تجار القاهرة من شره ثم توسط له عند الأمير طومان باي نائب الغيبة وقتها لكي يعفو عنه فتاب وحسنت توبته، وظل يتاجر في دكانه إلى أن حدث ما حدث وسقطت القاهرة بيد بني عثمان، وأخذوا المخاليق عُنوة العاطل في الباطل، فَجرت ورائه لوزة زوجته تلحقه ولم تتركه لحظة.

عاد المرجاوي إلى بيته برفقة لوزة وهي مترددة بالكلام تستحضر الكلام على شفتيها ثم تتراجع، ولاحظ ذلك المرجاوي فسألها:

- ما الحكاية؟ ما الأمر؟

فابتسمت لوزة له في دلالٍ ومحبة:

- أريد أن أفهم، لماذا؟

اعتدل في جلسته ثم رجع بظهره للخلف ليستند إلى الحائط، وهمهم قائلا:

- لا أدري، ربما عندما رأيت إدريس برفقته حاولت معرفة السر، الحقيقة لا أعرف ما سر تصرفي.

قامت لوزة تعد لهما العشاء، ثم قالت له:

- هل تظن أن إدريس من الممكن أن يكون خائنًا؟

فهز المرجاوي رأسه بالنفي التام، ثم قال لها:

- إدريس ابن عز، وسبق لي الكلام معه لما كان بخدمة السلطان لكن أمره عجيبٌ وغريب، عمومًا هكذا هم أهل النوبة فيهم شيءٌ من الغموض في تصرفاتهم، لا أفهم صراحةً السر في هذا، لكن من المستحيل أنه يكون خائن مهما حصل، وأبسط الأمور لو وشي بي لكنت الآن معلقًا على أبواب إسلامبول.

فشهقت لوزة في رعبٍ:

- أبعد الله الشر عنك يا رجل.

فابتسم لها المرجاوي ورفع حاجبيه مغازلًا لها، فعادت لوزة للحديث:

- حسنًا، فمن الفتى الوسيم الذى كان برفقته؟

فاحمرت وجنتي مرجاوي ونظر لها شزرًا:

- ما بك يا لوزة ، مالك ومال الفتى الوسيم؟

فمصمصت لوزة شفتيها بحسرةٍ:

- تعقل يا مرجاوي، هذا الفتى بعمر أبنائي، لولا أنه ليس لي نصيبًا من الخلف، ثم دمعت عينيها، فأحاطها بذراعيه وأخذ يهدهدها حتى يهدأ نشيجها:

- أنتِ طفلتي، لا أحتاج لأي أبناء أنتِ أكبر أطفالي وأجملهم، والآن أين العشاء؟

فتضحك لوزة ثم تضربه على صدره في دلالٍ ومحبة، قائلة:

- ألا تشتاق الأطفال يا مرجاوي؟

يتعمد المرجاوي التشاغل بالطعام، فتسحب منه لوزة الطبق في دلالٍ ومشاكسة، فيقبلها على جبينها بحبٍ ثم يسألها:

- تُرى أين إدريس؟! لم يظهر في إسلامبول منذ فترة، ولا هذا الفتى الذى كان معه.

في تلك الفترة كان إدريس كمن يتقلب على جمر الندم، يعاقب نفسه لأنه نسي أو تناسى عهده القديم الذي عقده بينه وبين نفسه، وترك أمر الانتقام للخالق فأسلم نفسه لشياطينه السوداء التي راحت تنوح وتولول طلبًا لثأر السلطان المغدور، خاصةً بعدما رأى المرجاوي عدة مرات في ساحات إسلامبول وهو برفقة الأمير يرتديان زي العامة.

هو يعلم تمامًا أن المرجاوي سوف يتحمس بشدة من أجل مهمة كهذه، بل سيضع كل طاقته وهمه لتعليم الأمير أساليب الفداوية ([23]) وطرقهم عندما يعرف السر، وها قد حدث اللقاء بينهما لكنه الآن لا يعرف ما هو رد أورخان على ما فعله المرجاوي، فهو من وقتها وهو يعتبره متواطئًا مع المرجاوي،

أو على الأقل يسخر منه، ويخشى إدريس صدامهما وهو الوحيد الذى يعلم الحقيقة الكاملة، لكنه لا يدري متى يرجع الأمير من الحملة التي أرسلها السلطان لتأديب بعض المتمردين ببلاد الأفلاق والبغدان.

أعجب أورخان كثيرًا بطبيعة بلاد الأفلاق والبغدان الساحرة وخدعته المظاهر، وظن أن أهلها مجرد فلاحين مسالمين مثل أغلب رعايا السلطنة، وخرج يتجول بعيدًا عن المعسكر فسمع صراخًا فجرى نحو مصدر الصوت فوجد فتاةً من أجمل ما يكون، يحاول اثنان من قاطعي الطريق سلبها وسرقة ماشيتها، فتحركت الشهامة في نفسه، واندفع أورخان بسذاجته ونيته الطيبة يدافع عن تلك الفتاة الجميلة، حتى فوجئ بأنه سقط في قبضة ثلاثتهم، فهذا لم يكن سوى فخًا منصوب له لتحطيم نفوس الجنود، وها هو قد وقع فيه والفتاة تهدده بنشابٍ في يدها، فكانوا ثلاثةً ضد واحدٍ ولا مجال للبطولة، فطلبوا منه أن يُلقي سيفه ويخلع غدارّته ، فلما وضع يده على حزامه تذكر خنجره المغصوب فشعر بأنه يكاد يموت حنقًا، ولم ينقذه سوى التراب.

لما نزل ليضع سيفه وغدارته التقط حفنة من التراب أثناء كلامه مع البنت وعاتبها على أنه جاء لإنقاذها فاستبدلت الشهامة بالخبث، وفجأة ذر التراب في وجوههم ليجري بأقصى سرعة نحو المعسكر وقضى ليلته يتميز غيظًا وحقدًا، فهذه المرة الثانية التي يستغفله شخصٌ ما، ولم يرتاح له بالًا إلا بعدما قضى على التمرد، حتى إن السلطان أرسل في طلبه بسبب عنفه وقسوته.

هدأت الأمور واستتب للعثمانيين الأمر في الأفلاق والبغدان، وصار بإمكان

الأمير العودة إلى إسلامبول، وكان أول شيء عليه لقاء السلطان فتلقى منه عتابًا واضحًا على عنفه وقسوته في التعامل مع الأهالي فأحنى أورخان رأسه في طاعةٍ وخجل، يستمع لنصح أبيه السلطان في أدبٍ جم، ثم قص عليه طرفًا مما جرى له وكيف كاد أن يدفع حياته ثمنًا لشهامته، فكان هذا أدعى للسلطان أن يؤنبه لأنه لم يعلم أين عليه أن يصرف جهده وحذره من الغفلة، فمثل هذه البلاد هي دار حرب.

خرج أورخان من عند السلطان شاعرًا بالراحة بعدما كان يستعد لتلقي التوبيخ الشديد منه، لكن السلطان كان حصيفًا يعرف متى يصرف شدته ولينه، ومتي يمزج بينهما، لكن ما زالت مسألة الخنجر تؤرق باله وهو يتحاشى اللقاء مع إدريس حتى لا يتناقشان بهذا الأمر مجددًا، فلو كان إدريس وصل لشيءٍ لوجده أول شخص يقابله بمجرد عودته للقصر ولسلمه خنجره، لكن الآن عليه أن يبحث وحده عن ذلك السارق.

ظل أورخان أيامًا وأيام يبحث عن المرجاوي، وإدريس علم بمجيء الأمير لكن الأمير جلب حاجبًا يجلس على باب غرفته لتحاشي إدريس، وأحسها إدريس بقلبه أن الأمير يسعى وراء المرجاوي من دونه وجلوس حاجب ببابه هو لومٌ صريحٌ له، فتزيا هذه المرة بملابس فلاحي الأناضول حتى لا يعرفه

الأمير وخرج هو الآخر في أثره، حتى شاهد حلقة من العامة تحيط المرجاوي

وهو يصيح رافعًا عقيرته بالصلاة على الرسول ثم دخل إلى حلقة النار المشتعلة ثم خرج من الجهة الأخرى سالمًا، ليفاجأ بأورخان يقف في وجهه يسد عليه الطريق وقد أمسك بتلابيبه، ثم سدد له ضربةً يريد منه خنجره، وحين وجد إدريس الوضع قد تأزم، صاح في أورخان:

- توقف أيها الأمير، توقف من فضلك.

احتقن وجه المرجاوي غيظًا وحقدًا وهو ما زال يريد الاقتصاص ممن قتلوا السلطان المغدور الأشرف طومان باي، وها هي الفرصة سُنحت له وسيقتل ذاك الفتى المدلل في مبارزة، فأثار غضب أورخان برده على إدريس:

- دعه لي، هذا الكلب العثمانى.

أخرج المرجاوي من جعبته الخنجر وألقى به أرضًا ووضعه تحت قدمه، ثم برز سيفٌ صقيل من جعبته متحديًا الأمير في مبارزة، جرى إدريس على الأمير ليمنعه فهو لا يعرف إنه فارس لا يشق له غبار، لكن أورخان اشتعل قلبه فدفع إدريس وجرى نحو غريمه ليقتص منه.

دارت المبارزة في زقاقٍ ضيق لا يسمح بالكثير من المناورة أو الحركة، لكن أورخان كان خفيف الحركة وقوي الضربة، أما المرجاوي كان أكثر تمرسًا وخبرة، يعرف مواطن الضعف والقوة، ظلا يتبارزان ويتصايحان وصليل السيوف يصك الآذان كأن جماعة من الفرسان تتقاتل وليس مجرد رجلين، ولوزة وإدريس يراقبان الموقف بقلقٍ بالغ.

في كل ضربة يتفرس المرجاوي في وجه إدريس يريد أن يقرأ ملامحه فيراها جامدة وعيناه تلمعان، لم يجد فيهما ما أراد أن يعرفه، فلابد من علاقة ما تربط الأمير بتابعه وسرٌ ما لكن ما هو، بدأ الخدر والملل يصيبان ذراع المرجاوي فقد كبرت سنه ولم يعد كما كان، فأراد إنهاء المبارزة وبحركة ماهرة لا تتناسب مطلقًا مع سنه ضرب الحائط بقدميه ودار نصف دورة بالهواء، ثم هوى بسيفه على مقبض سيف الأمير فجرح يده، فسقط السيف وصرخ أورخان فانخلع إدريس على أثر الصرخة من مكانه، ليخلع عمامته ويلف بها يد الأمير النازفة فابتسم المرجاوي في ظفرٍ ونظر لإدريس نظرة ذات مغزى، لمحها أورخان ولم يفهم ما دار بينهما لكن الأمير كان ما يزالُ يقف مذهولًا من براعة وشجاعة المرجاوي، ولا يدري كيف فعلها وقال له:

- حقًا إن المظاهر خادعة.

انحني المرجاوي وناوله سيفه وخنجره ثم ربت على كتفه بأُبُوة وقال له:

- لا بأس بك، هكذا علموك في مدارس الفرسان عند السلطان، أليس كذلك؟

نظر أورخان له بتحدٍ وقال له:

- بلى، هكذا تعلمنا وما زلنا نهزم أعدائنا من الفرنجة، لكن ما قمت به هو فنٌ جديد علي، أتمنى تعلمه.

فضحك المرجاوي من قلبه وقال له:

- ألم يحكِ لك إدريس عن قره ميدان وصولات فرسانها وجولاتهم وعن العياق.

فضحك إدريس من قلبه، ثم قال للمرجاوي ممازحًا:

- ما تعلمناه في قره ميدان، أم ما علمك إياه الفداوية؟!

فامتقع وجه الأمير أورخان وتراجع عنهم خطوة وردد الكلمة بدهشةٍ امتزجت بالخوف، فهو يعلم حرب السلطان مع المملكة الصفوية، وفهم إدريس ما يرمى إليه الأمير، فابتسم له ثم قال له:

- اطمئن، كان جده فداويًا أما هو فقد تاب وأصلح.

فقال الأمير:

- أنا لم أفهم بعد ما قصتك مع الفداوية.

ربت المرجاوي على كتف الأمير بمحبةٍ وقال له:

- هي قصة تطول يا فتى، دعنا نأخذ غذاءنا وأحكي لك قصتي معهم.

تحرك الجمع السعيد نحو بيت المرجاوي، لكن كان هناك عينان ترقبان وتسمعان وتسجلان كل همسة نطقوا بها.

القاهرة في 24 من جمادى الآخر لسنة 941 هـ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

سيزيف

(1)

دخل إلى الغرفة حاملًا أكواب القرفة التي يحبها شيخه، فوجده ما زال يجلس في مصلاه وسمعه يتنهد بأسى ثم خرج دعائه بنبراتٍ متهدجة يملأها الخشوع والضراعة:

- يا سامع الصوت وكاسي العظام بعد الموت، يا رب المستضعفين ومولى من لا مولى له، وها أنت ترى ما آل إليه حالنا فصرنا مثل سيزيف.

فشهق منصور دون قصد منه بدهشةٍ واستنكار، فالتفت الشيخ على صوته ثم ابتسم، فقد فهم ما دار بخلد تلميذه:

- كما أنت لم تتغير، لو كان جدك "حسين الفرماوي" إمامي ومعلمي حيًا بيننا لأيد كلامي ووبخك.

فابتسم "منصور الفرماوي" في حياءٍ وأراد أن يناقش أستاذه، لكن الشيخ "محمد الهوارى" رد عليه بلهجةٍ قاطعة:

- صه، صه، تعلم العلم ثم ناقشني كما تشاء.

تنحنح منصور في حرجٍ فهو لم يتوقع هذا الرد، والشيخ محمد لا تربطه به علاقة عادية، فهو صهره وأستاذه بالأزهر وقدوتهً الذي سار على نهجه واتبع خطاه، والشيخ بدوره وثق فيه فزوجه وحيدته، لكنه عاد يقول لنفسه، لكن هذا لا يمنعني من المناقشة:

- لكن يا إمام أليس "سيزيف" هذا من بِدع فلاسفة الإغريق الكفار و...

قطع عليه استرساله بالكلام ابتسامة أستاذه الهادئة التي ازدادت اتساعًا هذه المرة، ثم ربت على كتفه برقةٍ ففهم أنه يتكلم بشكلٍ خاطئ، فسكت ليسمع أستاذه:

- ألم أطلب إليك يا ولدي أن تتعلم أولًا؟

ران صمتٌ على المكان ثم أخذ الشيخ يحكي له عن أسطورة سيزيف، ثم تهدج صوته:

- ألا ترى حالنا وحال أهل بلادنا؟ يعملون ويكدون في الحقول والمحال ثم يأتي المماليك لنهب خيرات بلادنا بدون أي جهدٍ ما بين ضرائب أو شغب، وإغارات وأعطيات للولاة، فلمن نعمل ونكد إن كان خيرنا يذهب لغيرنا بدون حتى شكر؟ أليست حالنا هذه أشبه بحال سيزيف في عذابه الأزلي؟! ([24])

اعترى منصور الخجل لما أدرك مغزى الكلام عن سيزيف، الذي يستيقظ مع كل صباح ليصعد الجبل حاملًا حجرًا كبيرًا لا يقدر على حمله أعتى الرجال، ويظل يدحرجه صعودًا إلى قمة الجبل، ويظل طيلة النهار يقاسي الحر والتعب وما إن يصل إلى القمة يلقي بحجره ويعاود الكرة مرة أخرى في عذابٍ بلا نهاية، وتلك هي حال الفلاح الذي يشقى طوال العام ثم يتم نهب محصوله على يد الملتزمين، وكذلك حال الصناع وأصحاب الحرف، وفي النهاية لا يجدون ما يسدون به رمقهم، ثم عاد ليسأل شيخه:

- وما الذي يجعلنا نصبر على الضيم ونحن قادرون على الدفع ،هل نسيت آخر واقعة بيننا وبينهم؟ الكل يُجلك ويُعظم قدرك وأروقة المجاورين طوع بنانك، فلنخلعهم ونرسل إلى السلطان في إسلامبول ونختار واحدًا من علمائنا.

أخذ الشيخ يعبث بلحيته البيضاء متفكرًا ثم التفت نحوه وقال:

- أتظنني لم أفكر بهذا؟ لكن اعلم أنه لحاكم جائر خيرٌ من حاكم كافر، والإفرنج على أبواب بلادنا وقد وصلتني أخبار إغارتهم على إخوتنا بالجزائر، وأخشي أن أخلعهم فتسوء الحال وتزداد اضطرابًا، وسوف تكون الفرصة سانحة للإفرنج وأوباش القاهرة للسلب والنهب والمقتلة، فالائتئاد الائتئاد يا ولدي، وسيرسل ربك من يوحد قلوب العباد، أما نحن فأهل علم ولسنا أهلًا للحُكم والسياسة وإلى أن يحل الفرج سنقاوم الظلم قدر استطاعتنا، والمماليك يدركون خطورة غضب المشايخ.

يندفع منصور كعادته:

- لكن الحاكم هو السلطان الساكن بإسلامبول، وليس المماليك يا إمام.

- بلى هذا صحيح، لكن من هو الحاكم الفعلي؟

نظر له منصور بدهشةٍ فأتاه الرد:

- إنه من يملك الأقوات والأموال وقلوب الرجال، إنه شيخ البلد ([25]) أما الوالي العثماني مجرد صورة، فإن عادوا عدنا يا منصور.

لم يكد ينتهي الشيخ من كلامه إلا واضطرب الحي وسمعت جلبة أصواتٍ مختلطة تملأ المكان، ما بين سنابك خيل وصهيلها وعويل نسائي ثم حركة أقدام لخلقٍ كثيرة واستغاثات عديدة تنادي باسم الشيخ محمد، فيخرج منصور من الشرفة لاستطلاع الأمر ليجد فرقة من المماليك تحاصر بيت زميله "الشيخ حسين" وقبضوا على والده، ونساء البيت يولولن ويصرخن وأبناء البلد حملوا النبابيت والشرر يتطاير من الأعين يريدون منع فرقة المماليك، و"خليل بك" يحذرهم من مغبة تصرفهم والأعصاب مشدودة،

والأمر ينذر بكارثة، فيخف إليهم منصور حاملًا عصاه، ويلحق به في أثره الشيخ محمد ليتدخل من أجل إنقاذ الموقف المحتدم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فيتوقف الجدل الدائر بين الفريقين ويظهر الشيخ محمد مثل الليث الغاضب، موجهًا كلامه إلى خليل بك نائب قائد الشرطة:

- ما سر زيارتك لنا خليل بيك في الليل معتديًا على حرمات البيوت؟

كان خليل ما زال يجلس على صهوة حصانه، ثم ترجل من فوقه ليخاطب الشيخ بعدما أحس بخطورة الموقف وحساسيته:

- سامحني، الأوامر يا شيخ محمد كما تعلم والشيخ حسين تجاوز حده، ومجلس الحكم منعقد ينتظر القبض عليه حيًا أو ميتًا، وعندما لم يجدوه أرادوا أخذ أبيه مكانه حتى يأتي ليُسلم نفسه.

يحاول خليل أن يُبدي له أسفه ويبرر الأمر بأنها الأوامر السلطانية، التي عليه إتباعها وعلى الجميع ذلك، فيرد على كلامه أصوات العامة الغاضبين بأنهم ظلمة وما ذنب الشيخ حُسين الذي أراد رفع الظلم، لكن الشيخ محمد يشير لهم طالبًا الهدوء ليتفاهم مع خليل بيك:

- يا بيك، مجلس الحكم يريد رأس حسين، أم أنها أوامر شيخ البلد "الأمير يوسف"؟

يتغير وجه خليل بك ويبدو عليه الغضب ثم يرد عليه:

- يا شيخ محمد، لا تفتح علينا أبواب الريح.

فيرد عليه:

- هل أذنب حسين لما صدع بالحق، لقد أشعلتم الأسعار وشحت الأقوات، والسر أن شيخ البلد رفع حق إتاوة الدخول من أبواب القاهرة على أقوات الخلائق، أما بقية البضائع التي لا حاجة لنا بها وتخصه هو وكبار الأمراء والأعيان تدخل بسعر الإتاوة القديم، قل لي يا خليل بك أهذا عدلٌ؟ أهذا حقٌ؟

تلجلج خليل بك ووجد أنه لا يقدر على مجاراة الشيخ محمد في منطقه، لأنه في قرارة نفسه يعلم أن حسين ليس مذنبًا، هو قال الحق وفي نفس الوقت لا يقدر على مخالفة الأوامر رغم أنه قال لهم هذا في مجلس القلعة، لكنه لا يدري بماذا يرد على الشيخ محمد، فتنحنح مرة أخرى فابتسم له الشيخ ليرفع عنه الحرج وأمر العامة ليفسحوا له ورجاله الطريق، فخرجوا آمنين تاركين خلفهم والد حُسين ثم التفت إلى منصور:

- ألم أقل لك؟ شيخ البلد هو الحاكم الفعلي، يا منصور ولا بد أن نرفع مظلمتنا للسلطان، لذا سأسافر غدا إلى الإسكندرية ومنها إلى إسلامبول.

يمضي خليل بك ومعه جنوده وهو يجز على أسنانه في غيظٍ بينما يسمع همس العامة عن قوة الشيخ محمد، الذي اقترب من الستين من عمره لكنه ما زال كما هو لم يتضعضع له ركن، وكل أهالي حي الصناديقية لا ينسون أنه أول مجاور بالأزهر ضرب واحدًا من المماليك بالنبوت دفاعًا عن شخص من العامة لا يعرفه، ومن يومها وهو لسان حال العامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

صرخ المرجاوي فيه بشدة:

- عدة سنوات مرت حتى الآن، وأنت ما زلت كما أنت لم تقدر على تعلم هذه الخدعة، ماذا أصابك يا فتى؟!

يصمت الأمير في خجلٍ وضيق، فقد وضع المرجاوي كل أسرار فنه في الأمير الصغير حتى تفوق عليه، لكنه حتى الآن لا يعلم ما سر الحديث الخفي بالأعين الذي يدور بينه وبين إدريس وما سر الهمس.

فقد باح أخيرًا إدريس له بالسر الذى كان يؤرقه وشرح له لماذا منعه عن قتل السلطان سليم بن بايزيد ليلتها، وها هي السنوات تمر على أورخان يكبر فيها ويصير من أصغر القادة المشهود لهم بالفروسية والشجاعة، والفضل يرجع إلى أستاذه المرجاوي الذي اجتهد في تعليمه فنونًا لم يألفها بنو عثمان مثل فن مصارعة أهل جاوة([26]) التي تعتمد على مواضع الألم بالجسد، وحيل البنج واستخدام المواد الملتهبة، وفنون التنكر والتقمص، واستخدام الأصباغ المختلفة في تحويل الشكل وتقليد الأصوات، وساعد في الأمر موهبة أورخان في تقبل مثل تلك الأمور، حتى تفوق على أستاذه واستطاع في مرة من المرات أن يتنكر في زي التجار الأرمن وتكلم بلسانهم مع المرجاوي ولم يتعرف إليه، لقد تعلم بجانب هذا فنون العياق في الفروسية، أمور لم يعتدها الفرسان مثل تسلق الأسوار وفتح الأقفال والكلافة([27]) ، كل شيءٍ تعلمه عدا تلك الخدعة الملعونة التي كلما حاول تنفيذها سقط أرضًا وسخر منه المرجاوي، هي الشيء الوحيد الذي لم يقهره بعد ليصير متمرسًا مثل أستاذه، إنها تلك الخدعة التي هزمه بها المرجاوي في مبارزتهما منذ سنين وإلى الآن يفشل في أدائها، وليس أمامه الكثير من الوقت لأنه بصدد التجهيز لحملة على

بلاد الصرب تحت قيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا الإفرنجي، لكنه عليه أيضًا أن يستمع إلى توبيخ المرجاوي وقصصه عن جده الذي كان فداويًا ثم وجد الطريق الصحيح للجهاد، واتجه لمحاربة الصليبين وانضوى تحت

لواء "السلطان قلاوون"، وهنا تدخل إدريس وخرج عن صمته:

- يا مرجاوي، إنه لا يحتاج إلى تدريب جسده بل يحتاج تدريب عقله.

اخذ المرجاوي يضرب كفًا بكفٍ هازئًا بالكلام، لكنه وجد إدريس وجهه اكتسى بالجد والوقار وسأل المرجاوي:

- ألا تجد يا مرجاوي الجندي قد أثخنته الجراحات القاتلة، لكنه ما زال يقاتل!

تدخلت هنا لوزة بالكلام:

- صح كلامك يا عم إدريس.

فتدخل المرجاوي:

- لا شأن لكِ يا لوزة، هذا تلميذي.

فضحكت لوزة وربتت على كتف الأمير وقالت له:

- وهو ابني.

فاحمرت وجنتي الأمير من إطراء لوزة، فقد كان إدريس والمرجاوي ولوزة بمثابة الأسرة الحقيقية له، أما علاء الدين فكان أعز أصدقائه في الأورطة هو ومصطفى البوشناقي.

التفت المرجاوي بشكل مفاجئ جعل الجميع يتلفتون، ولما سألوه قال:

- شعرت وكأن هناك أعين تتبعني.

ابتسم إدريس مازحًا:

- يبدو أنك كبرت يا مرجاوي.

نظر إليه المرجاوي بغيظٍ:

- إدريس، أنت تعرف ما معنى أن تكون فداويًا وتعي، وعندما أقول لك أني شعرت بأن هناك من يراقبني، فأنا لا أمزح.

امتقع وجه إدريس على أثر تلك الكلمات وبدا على وجهه القلق، فمن ذا الذي يتقفى أثرهم وما الذي سمعه، وبدأت الهواجس تلعب برأسه، هو لا يخشى على حياته شيئًا لكن كل همه الأمير، لكن يبدو أن إبراهيم باشا الإفرنجي ما زال يمارس دسائسه الخفية في الظلام وخاصةً بعدما سطع نجم الأمير، فقرر إدريس الرحيل وطلب من أورخان أن يتحرك بعده بقليلٍ وأن اجتماعهم بعد شهر من يومهم هذا.

أثار رحيل إدريس موجة من القلق، فطلب الأمير من المرجاوي الدخول إلى كوخه وذهب للتنزه قليلًا حتى ساقته قدماه إلى شاطئ البوسفور، فجلس وحيدًا يفكر في هذا الشعور الغريب الذي اجتاح نفسه لأول مرةٍ إنه "الخوف" الذي لم يعرفه من قبل، ربما صادفه في وقتٍ ما عندما صارع الأسد، لكنه لم يُجرب من قبل الخوف على حياة شخص يهمه، لأنه كَبر ولم يعرف له عائلة سوى سلطانه، وعاش طوال عمره يتعلم ويتدرب لكي يصير فارسًا يعمل في خدمة السلطان لكنه لم يعرف ما معنى الأسرة إلا مع المرجاوي ولوزة، رغم حبه لإدريس لكنه لم يشعر بالخوف عليه لكنه اليوم شعر بأنه يخاف على هؤلاء الثلاثة ويخشى بطش إبراهيم باشا الإفرنجي الذي يسعى دائمًا خلفه، يريد الإيقاع به ليفسح المجال لابنه محمّد، ولو علم أن المرجاوي جده كان فداويًا لنسج حول تلك القصة الكثير والكثير، وخاصةً لحساسية الوضع بين السلطان والشاه الصفوي، الذي لا يفهم حتى الآن ما سر خلافهما ولو اتحدا لكانا أعظم قوة تخيف الإفرنج، ولكنها شئون السياسة التي لا يفقه فيها فهو صنعته الحرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(3)

تتغير الخطط فجأة ويقرر السلطان استبقاء أورخان، وإرسال الأمير محمد ابن صهره إبراهيم باشا الإفرنجي للقضاء على تمرد أمراء الصرب الذين أوقفوا دفع الجزية وبدأوا بالتحصن وبناء عدة قلاع بقيادة الدوق "بيتروفيتش"، معلنين العصيان والخروج على السلطان فيأمر السلطان بإبقاء أورخان من أجل التجهز لحملة جديدة على عدوه اللدود الشاه الصفوي الذي يمثل له صداعًا لا ينتهي لكنه في نفس الوقت أرادها أن تكون فرصة طيبة ليتعلم الفتى شيئًا من فنون الحكم والإدارة، فقد ضاق صدر السلطان من تهرب أورخان بهذه الكلمات التي يرددها دوما:

- سيدي السلطان، أنا جندي وصنعتي هي الحرب، وشرف لي أن أقف بأول الصفوف مع إخوتي من الانكشارية.

في كل مرة كان السلطان يسكت على مضض ويترك الأمير مع الانكشارية وقد سرّه نبوغه العسكري، لكن السلطان كانت له نظرة أكثر بُعدًا ويفهم كيف يسوس شئون بلاطه، لذا فهو يسكت عن الصراع الخفي الدائر في أروقة قصره ولا يتدخل لمقاطعته، يعلم بتجاوزات وزيره ونسيبه إبراهيم باشا الذي لا يحب أورخان ويقاوم وجوده لأنه يمثل المنافس الأقوى لابنه على منصب الصدر الأعظم، ثم يَبقى دوره في الحفاظ على الصراع مع إبقائه في حدوده فيشغل جميع الأطراف عن السعي لسرير المُلك، وتلقائيًا يصل العنصر الأجدر للمناصب العليا وينال حظوة وشرف خدمة السلطان.

يعلم السلطان أيضًا بِحُب الانكشارية لأورخان بالأخص بعدما صرع الأسد وهو ما يزال فتى غض العود فلقبوه بُمصارع الأسود، لكنه يمنعه هذه المرة من الذهاب للحرب حتى لا يفتتن به الرجال خاصةً أن ذلك الأمير الصربي شهرته الأسد الكاسر، فأمثال هؤلاء الرجال صَنْعتهم الحرب والجهاد وهو حياتهم، فلا يهابون الموت لكنهم يحسبون حسابًا للرجل القوي الذي يحظون في كنفه بالعزة والكرامة، ويمقتون القائد الضعيف، أما القاب قولي([28]) تميل بطبيعة الحال للأمير محمد ابن الحسب والنسب لأنهم عاشوا يخدمون بالقصور ويحلمون بالجاه والمنصب.

"تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن" عبارة لم يكذب قائلها، فقد صادف طلب الأمير الإذن بالدخول على السلطان وفي حضرته الشيخ محمد الهوارى يشكو له ظلم الأمراء المماليك وبنفس الوقت حضرت الأخبار إليه من بلاد الصرب تُنبئه عن خسارة عدد ليس بالقليل من جند الخلافة في الحملة التي يقودها الأمير محمد، وقد كان السلطان استبطأ النصر ليخيب محمد ابن أخته آماله هو وأورخان الذي بدا أن حياة القصور والسياسة أيضًا لا تناسبه، ويدخل أورخان طالبًا الإذن بالالتحاق بالمدد الذى طلبه الأمير محمد لمقاتلة الصرب، ولم يكن السلطان قد علم به بعد لأن الحاشية لم ينشروا الخبر لوجود الشيخ محمد، فلما علم صب جام غضبه على أورخان الذي تكلم بحسن نية ولم يرع أنه يؤنبه أمام الشيخ محمد الذي أشفق على الفتى من غضبة السلطان وقتها.

في صباح اليوم التالي طلب السلطان إحضار أورخان وطيب خاطره وشرح له سبب غضبه وأنه سوف يجعله يذهب على رأس التعزيزات التي طلبها الأمير محمد وسيكون هو قائد الحملة بدلًا من

محمد.

نظر الأمير أورخان للسلطان بدهشةٍ شديدة ولم يفهم الأمر، لكن السلطان قطع عليه دهشته وأخبره بأن الشيخ محمد الهوارى سوف يذهب بصحبة الجيش أيضًا، لم يعرف أورخان بما يرد على السلطان لكنه اكتفى بهز رأسه وتنفيذ الأمر، وهو لا يعلم ماذا سيفعل برفقة شيخٍ مُسن مثله لكن أوامر السلطان واجبة النفاذ، لكنهم حين انطلقوا اكتشف أن الشيخ لا يقل فروسية عن أي منهم، فكان هذا سببًا للكلام مع الشيخ فعرف منه أنه بالأساس من صعيد مصر من عرب الهوارة، وقد تعلم الفروسية منذ نعومة أظافره بحكم نشأته في بلدته، ثم انتقل بعدها إلى القاهرة ليجاور بالأزهر وارتقى في مراتب العلم حتى صار أستاذًا وله عامود بالأزهر يدرس من خلاله طلبته، سُر كثيرًا أورخان بالكلام مع الشيخ محمد وحكاياته عن مصر وشعر أنها تذكره بإدريس والأسطى إسماعيل، نفس الروح والحنين يجمعهم، لكن ظل السؤال يتردد في نفسه لماذا قبل أهلها بمهانة وظلم المماليك لهم.

زاد سرور أورخان دروس العلم التي كان يلقيها الشيخ محمد على الجنود كلما عسكروا في مكانٍ ما فزادت من نشاطهم وهمتهم فاستحثوا في سيرهم، فكان الوصول إلى قلعة الأسد الكاسر أسرع.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القلعة

أقوى القلاع والأبنية تسقط بنزع حجرٍ واحد من الأساس، والخوف كفيل بنزعها جميعًا.

أورخان بن طومان باي

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

القلعة

(1)

وصل الركب أخيرًا بعد طول سفرٍ إلى المعسكر على خير، وقد طارت الأنباء إلى الأمير محمد من قبل وصولهم بأن أورخان قادم يحمل الأمر بعزله من قيادة الحملة، وسرت الإشاعة في المعسكر فأحس محمد بنوعٍ من التقلب والتمرد في سلوكيات الجند بعدما علموا بمجيء رفيقه الذي تميل إليه قلوب الجند.

توقع أورخان ما قد يحدث في صفوف الجند أو قد يدور بُخُلد محمد لذا كان حصيفًا في تصرفه خشية أن تدب الفتنة والبلبلة، وهناك الكثير من الأرواح مسئولة منهما فهما الأميران، وأي تقصير معلقٌ في رقابهما، لذا وأدًا للفتنة بادر بطلب الإذن بمقابلة الأمير لتقديم نفسه ليكون تحت إمرته وأوصاهم خيرًا بالشيخ المصري الذى رافقه طوال الرحلة.

أثار تصرفه دهشة محمد الذى قدر ورسم في خياله أن صاحبه سوف يأتي في صورة المنتقم القادم لتصفية حساباتهما القديمة لكنه تجاوز أى خلافٍ، فأحس محمد في نفسه بالصَغار أمام ما فعله رفيقه وعادت إلى عقله ذكريات الصبا فقد كانا أعز صديقين إلى أن تدخل أباه وغذى في نفسه حلم توليه منصب الصدر الأعظم من بعده، لتتحول الصداقة إلى منافسة ثم يدب الخلاف بينه و بين صديقه ويميل لجانبه الأمراء الصغار، ثم يطلق تنهيدة أسى حارة ويرتفع صوت أفكاره:

- لقد مضى العمر سريعًا يا أورخان لم نعد نحن الصغيران المتشاكسان.

تتقلب الذكريات في رأسه ويتذكر كيف سولت له نفسه أن يطيع والده في ما زينه له ليحرض صاحبه على النزول إلى الساحة لمقاتلة الأسد الغاضب، ولم يكتفِ بذلك بل ذهب بنفسه ليعلن الخبر للملأ، وكم من مرة سعى بالوشاية ضده، ثم ها هو يظلمه مرة أخرى بسوء ظنه لكنه كان أكبر من الجميع بتخليه عن الإمارة خشية الفتنة التي قد تدب في صفوف الجند، وليس كما كان أقنعه أباه بأنه يسعى للتقرب من السلطان ويجهز نفسه لمنصب الصدر الأعظم القادم، ينظر لنفسه في المرآة ويسألها:

- أي صنفٍ من الرجال هذا الفتى؟

ثم يكور قبضته ويضرب نفسه في أسى ليدخل عليه حارس خيمته يخبره بحضور أورخان، فيهتف فيه لتركه قائمًا ينتظر فهب الجندي تلبية للأمر.

يقوم الأمير من مكانه مُرحِبًا بضيفه:

- همتك يا أمير، فقد أرسلت أطلب المدد فأرسلك السلطان ومعك الشيخ المصري ونفرًا قليلًا على رأسهم ذلك البوشناقي المجنون، فهل لديك خطة؟

يتردد أورخان قليلًا في الكلام، ثم يقول له:

- نعم، ولكننا نحتاج شيئًا من الصبر والمثابرة.

يُطرق مُحمد قليلًا فيسأله أورخان عن الخبر، فينظر له محمد طويلًا ثم يفتح الله عليه بالكلام:

- أورخان، لا أعرف كيف أعبر لك عن امتناني لإخفائك خبر عزلي عن الجند...

فيحاول أورخان مقاطعته لكنه يسترسل:

- لقد مضى زمن الصبا في ساحة القصر نتسابق على جوادينا، نحن الآن بساحة الوغى وأنا بحاجة لك لنقبض على ذلك الكلب بيتروفيتش، بعدما لم أُفْلح في فتح قلعته على مدى شهر، وحتى الأسرى الذين أمسكت بهم صمموا على تحمل العذاب حتى الموت والجند خفتت همتهم، وإذا لم ننجح في مهمتنا فقد يتشجع آخرون على الانتفاض.

التفت أورخان إلى الأمير مُحمد وأمسكه من ذراعيه بقوة:

- يا مُحمد أنت الأمير، وكلنا جنودك ولن نخذلك أبدًا.

عانقه محمد ثم أمر حارس خيمته بدعوة الأغوات لعقد مجلس الحرب، وظلت المناقشات ممتدة لوقتٍ متأخر بالليل، البعض اقترح تسميم قناة المياه الجارية التي يشرب منها من بالقلعة لكن هذا الاقتراح قوبل بمعارضة شديدة لأن هناك عددٌ كبير من الفلاحين محتجز بالقلعة، وقد يدفعه هذا إلى عمل انتقامي ومعنويات الجند ضعفت وقد يخسروا معركتهم، فعاد "داوود أغلو" لفكرة نقب السور من جديد، لكن الأمير محمد عارضه بعدما أفقدهم عددًا ليس بالقليل من الجنود وأضعف معنويات الباقيين، فأخلد أورخان للصمت إلى أن التفتوا إليه يسألوه.

فرد قائلًا:

- الكل يريد مهاجمة أسوار القلعة وأبراجها ولا يعلمون أن حروب القلاع جميعها متشابهة!

علا الاستنكار والدهشة وجوه الجميع وتكلموا في صوتٍ واحد:

- وكيف تتشابه في حربها وكل قلعة تختلف عن الأخرى في موقعها وقوة حاميتها وارتفاع أسوارها!

ابتسم لهم أورخان ثم أشار إلى المخطط المرسوم لقلعة الأسد الكاسر وقال لهم:

- حروب القلاع جميعها متشابهة، فأقوى الأبنية والقلاع لا تسقط إلا بنزع حجرًا واحدًا من الأساس، والخوف كفيل بنزعها جميعًا، فلنصوب على قلوب الرجال وعزائمهم.

سرت الهمهمة بين الأغوات، فهذا فنٌ جديد لم يألفوه لكن حجته القاطعة حبست الأنفاس.

- فتح القلعة لن يتم بالقوة، إنما ببث الرعب!

الأغوات في اعتراض:

- كيف هذا الأمر؟ وقد عذبنا الأسرى فما أفلحنا في انتزاع حرفًا منهم، وفَضلوا الموت؟!

فصحبهم الأمير خارج الخيمة ثم أمر الأجناد التي أتت بصحبته بدق الطبول وصدحت أرجاء المعسكر بالنشيد العثماني:

- أي شانلـــــى أوردو.. أى شانلى عسكر([29])

هيـدى غضنفر.. عمانى صفدر

بر الده قلقان بر.. الـــــــده خنجـــــر

ســـــر حـده دوغرو.. أى شانلى عسكر

دريـــاده أولســـــه.. هـر شى مظفـر

ديللرده تكبير.. الله أكبـــــــــر

الله أكـبر.. الله أكبر

اردومز السون.. دائـــم مظفـــــر

لم تكد تمر بضع دقائق إلا وسرت حالة من الاستنفار في أرجاء القلعة ومُلئت الأسوار حرسًا وصُوبت المدفعية تجاه المعسكر العثماني في تحفزٍ لأي هجوم قادم.

ثلاث ليال من الرعب سُلب الصرب فيها النوم والراحة بفضل حيلة أورخان البارعة، وقُذف الرعب في قلوبهم وانكمشوا داخل حصنهم مما أعطى أورخان المجال لتنفيذ الجزء الثاني من خُطته.

كان لهذا عظيم الأثر في نفوس الانكشارية واهتزت قلوب الصرب واستوعب الأغوات خطة الأمير، لكن الأسد الكاسر كان قائدًا محنكًا استشعر الوهن الذي بدأ يدب في جنوده، لذا قرر الدفع بفرقة صغيرة للاشتباك مع معسكر العثمانيين ليلًا لإحداث هرج ومرج وإخماد صحوتهم، لكن أورخان لم يفته هذا وسقطت الفرقة في قبضة الجيش العثمانى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

بمرور الوقت استنام الصرب للوضع واعتبروا الإنشاد الليلي مجرد تهديد فارغ بعد فشلهم في اقتحام القلعة طيلة فترة الشهر ونصف الشهر المنقضية، وعادت دورياتهم الليلية تجوب الأنحاء حول القلعة.

في جنح الليل تحركت عدة ظلال سوداء صوب أبواب القلعة اختلطت بالجنود ثم تلاشت، همس أحدهم لزميله بصوتٍ مبحوح:

- جاهز يا علاء؟

افتر ثغره عن ابتسامة ظفر ولمعت عيناه ثم أشعل سهمه وأطلقه فبرق في الليل، فدُقت طبول المعسكر العثماني وبدأوا هم في نقب السور بحذر، ظلت الأمور تسير على ما يرام حتى انتبه أحد جنود القلعة لصوت خشخشة وحركة غير طبيعية، ففوجئ بالمنظر ولم يكد يهم بالنداء إلا وسقط خارج أسوار القلعة فأحدث ارتطامه رجة عنيفة جرحت سكون الليل، وفوجئ علاء الدين بالأمير أورخان يقف بجوار جسد الجندي ممسكًا بقطعة من البوص المجوف ولم يكن الوقت يسمح بالسؤال.

تم اكتشاف جثة الجندي المقتول مع أضواء الصباح وبدأت الحركة تضطرب داخل القلعة وصار التعجيل بالهجوم ضرورة، وبدأ العثمانيين في تنظيم صفوفهم والشيخ محمد برفقة الجيش يدعو لهم ويشد من أزرهم.

أعاد أورخان صف الجيش فغير موضع الميمنة والميسرة والمقدمة والمؤخرة ووقفت فرق السباهية([30]) بقيادة الأغا مصطفى البوشناقي على غير العادة، فمصطفى في آخر الصفوف.

بدا الصرب متحفزين أكثر من ذي قبل بعدما اكتشفوا جثة قتيلهم وفهموا الخدعة، فاستشعروا خطورة الموقف فاندفعت موجات مُشاتهم المتتابعة تقاتل في ضراوة الضباع وحافظ الأسد الكاسر على أغلب فرسانه داخل القلعة.

استماتت الانكشارية في الصمود أمام هجمات الصرب المتتالية، ثم دقت الطبول فانطلقت المدفعية تدك أبراج القلعة لتسلبهم أخطر مزية يتمتعون بها وملقية في قلوبهم الرعب، ثم حَمى الوطيس وقد اقتضت الخطة بأن يُبدي المشاة التراجع تحت وطأة ضغط الصرب بعد سماع دوي عظيم، لتنطلق فرقة الأمير مُحّمد بصحبة أورخان وعلاء الدين صوب أبعد أسوار القلعة للقضاء على قائد الصرب وإنهاء المعركة بأقل خسائر، بعدما اجتهدوا طوال الليالي الماضية في الحفر أسفل السور وأحدثوا ثقوب خفية مُلئت بكميات

من البارود عندما كان الصرب منشغلين بأصوات الطبول والإنشاد في كل ليلة.

بمجرد أن سمع الجيش العثماني الدوي العظيم بدأ حاملي الرايات بالتلويح فبدأت الميمنة والميسرة في الانسحاب على شكل قوسين وكأنهما تفران أمام جحافل الصرب، مخلفة ورائها بضعة مدافع خفيفة مما أغرى الصرب بالمزيد من التقدم، فتقدموا باندفاع أكثر فانكشفت أبواب الحصن ثم بعد قليل

انجلت سُحب الغبار المتصاعدة ليفاجأ مشاة الصرب بفرق الخيالة تصطف في مواجهتهم تدعمها فرق الطوبجية ([31]).

تدفقت فرق الخيالة تجتاح كل ما يقابلها فأحدثت فوضى عارمة في صفوف مشاة الصرب، وسحقت جزءًا منهم حتى وصلوا إلى مؤخر الجيش الصربي أمام أبواب الحصن فحالوا بينهم وبين القلعة، ثم بدأت المدفعية تحصدهم مع عودة جناحي الجيش المنسحبين ليطبقا عليهم مثل شِقي الرحى وتعالت الصيحات والتكبيرات.

كان للنقب الذي حدث بالسور عظيم الأثر في نفوس الصرب التي امتلأت باليأس، وانشغل رماتها بالفرقة التي اجتاحت ساحة الحصن على رأسها الأمير محمد برفقة أورخان وعلاء الدين يتحرقون شوقًا لنيل شرف قتل الأسد الكاسر، ويندفع من بينهم علاء الدين كسَهمٍ مارق في خفة لا تُبارى غير مبالٍ بسهام العدو وفي عَقِبه الأمير محمد وأورخان يتسابق ثلاثتهمً في حصاد الرؤوس، فرأى الصرب الهول من فرط شجاعتهم ودارت معركة طاحنة في الساحة، أخذ يُجندل فيها علاء الدين بواسل الصرب بسيفه، وتشتت فأسه مهاجميه يؤازره الأمير مُحمد وأورخان.

انتبه بيتروفيتش إلى قلة عدد المهاجمين وأن معظم القتل في جنوده يأتي من ناحية هؤلاء الثلاثة وباب القلعة لم يفض بعد، فانتهزها فرصة ودفع بفرق الخيالة للاصطفاف دفاعًا عن الثغرات التي حدثت بسور الحصن، وفي محاولة أخيرة لتضييق الخناق على الفرقة التي اقتحمت قلعته.

ألفى مُحمّد نفسه مُحاطًا بمجموعة من الجنود وكاد أحدهم أن يناله لولا أورخان، ثم بدأت الكفة تميل للصرب مرةً أخرى بعدما فشل من بالخارج في فض أبواب القلعة والمدفعية الصربية لم يتم الاستيلاء عليها بعد، وفرسان الصرب تستميت في الدفاع أمام الثغرات المفتوحة بالأسوار، والأسد الكاسر خلع غطاء رأسه ونزل ليقاتل بجوار جنوده فأعاد الروح إليهم مرة أخرى، وقد كان اسمًا على مسمى فهو شجاع لا يُبارى في المبارزة، له بنيانٌ قويٌ ورأسٌ ضخمة يكسوها شعرٌ كثيف نافر يُشبه رأس الأسد، ظل بيتروفيتش يُجندل يمينًا ويسارًا في الجند كأنهم تماثيل من مِلح يتهاوون تحت وطأة

ضرباته، وشعر أورخان بفشل خطته وازاد حنقه بسبب تهور علاء الدين الغير مُفَسر وهو مشتت بينه هو ومحمد والخناق يشتد أكثر وأكثر عليهم، والقلوب أصبحت لدى الحناجر ليزداد الوضع سوءًا بسقوط الأمير محمد تحت وطأة جروحه، وعلاء الدين مستمرًا في تهوره إلى أن استوعب أورخان خطته في النفاذ إلى أبواب القلعة ليفتحها أمام فرق السباهية.

يرفع أورخان إلى ربه أكف الضراعة بعد تأخر البوشناقي في فتح أبواب الحصن، وفي هذه اللحظة العصيبة تُسمع صيحة من خارج أسوار القلعة تخشع لها أصوات المتقاتلين للحظة:

- إن جندنا لهم الغالبون، إن جندنا لهم الغالبون، يا رب دائم مظفر، دائم مظفر، ثم يرفع عصاه ويدق على باب الحصن.

"دائم مظفر" هي الكلمة الوحيدة التي تبينها الشيخ محمد من النشيد العثماني لعدم علمه بلغتهم لكنها كانت كفيلة بإشعال حماسة الجنود فاستعادوا ثباتهم بعدما عرفوا صوته، ويكر الشيخ مرة أخرى على باب القلعة غير مبالٍ بخطورة الأمر، يدق على الباب بعصاه ليحمس الجند الذين آثروا السلامة

تحاشيًا لسهام الصرب وضربات المنجنيق، لكن ما فعله وكرره عدة مرات أشعرهم بالخجل من أنفسهم، فهذا الكهل لم يبالِ بكبر سنه أو وَهن عظمه وما زال يطلب الشهادة، يشتد الدق على أبواب القلعة لكن الباب يصمد أمام الضربات الموجهة إليه والصرب تشتد ضراوتهم بعدما تيقنوا من مصيرهم المحتوم، والشيخ محمد يهتف ويُكبر حتى بُح صوته وأشفق عليه الأغوات فقادوه بعيدًا عن ساحة الوغى وهو يأبى أن يبتعد إلى أن فعلها علاء الدين وتمكن أخيرًا من فتح الباب، فتدفقت فرق السباهية إلى ساحة القلعة.

يخر أورخان ساجدًا ويطيش السهم الذي كان يَقصده مُصيبًا علاء الدين في وجهه ويخر مغشيًا عليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

سقطت القلعة والفضل يرجع لبسالة علاء الدين وشجاعة الشيخ محمد اللذان لم يُر لهما مثيل، فكان أول شيء فعله أورخان بعد فتح القلعة ذهابه للشيخ محمد ليشكره وفي نفس الوقت يسأله كيف علم بأنهم في ضيق في هذه اللحظة، لكنه لم يحصل على إجابة شافية منه لأنه هو نفسه قال له أنه تصرف من تلقاء نفسه واندفع بحصانه نحو القلعة.

تم القبض على بيتروفيتش الذي قُطعت رقبته وعُلقت جثته ليكون عبرةً لكل من يفكر بالتمرد على السلطان، لكن علاء الدين هو من ساءت حالته وأكد الأغا مصطفى البوشناقي أن السهم الذي أصابه لابد وأن كان مسمومًا لذا أصابته حمى وأخذ يهذى بعباراتٍ غريبة:

- لكن أورخان صديقي سيدي، إنه صديقي.

وسمع أورخان كلماته التي كان يرددها من حينٍ لآخر وظهر على وجهه التعجب وأحس أيضًا بأن الأغا مصطفى البوشناقي يريد قول شيئًا لكنه تراجع عنه، ثم نسي الأمر وانشغل بمسألة طبيب القلعة، فطبيب الحملة لم يعرف كيف يُعالج علاء ولاح في ذهنه طبيب القلعة وبالتأكيد أنه يحمل ترياقًا ضد هذا السم وإلا فمن صنعه بالأساس، وعلى الفور تحرك بصحبة مصطفى البوشناقي نحو سجن القلعة وأخرجا ذلك الطبيب الذي حاول المراوغة في البدء لكن مصطفى البوشناقي كان حاسمًا وأمسك به من تلابيبه ثم رفعه بكلتا يديه في الهواء وهدده بأن يلقيه من سور القلعة إن لم يساعدهما، فخاف الرجل على حياته وصنع الترياق وبدأت الحمى تهدأ أثارها، لكن علاء ما زال ضعيفًا لا يقوى على الكلام.

عادت الحملة إلى إسلامبول ظافرةً وهدأت فتنة الأسد الكاسر بعد قتله وكف الفلاحون عن الشغب وافتعال المشاكل ووصلت جميع الأخبار للسلطان.

جلس السلطان في قاعة العرش وصدره الأعظم إبراهيم باشا الإفرنجي يستقبلان الفاتحين، وكانت سعادة إبراهيم باشا لا تضاهيها سعادة سوى أن وجود أورخان كان ينغص عليه فرحته.

أثنى السلطان خيرًا على مُحمد وقد فرح كثيرًا بذلك وكذلك أباه، لكن محمد تذكر ما قد عاهد نفسه عليه فوضع كفه على كتف أورخان في محبةٍ وخاطب السلطان قائلًا:

- لولا أورخان يا مولاي وحسن تدبيره لهزمنا شر هزيمة.

تدفق الدم حارًا في عروق إبراهيم باشا وبدت العداوة والبغضاء على وجهه، ولم يقدر على حبسها فصفع ابنه على وجهه فانتفض السلطان من موضعه ليخلص ابن أخته من أبيه، وحاول أورخان تهدئة إبراهيم باشا لكنه سبه ودفعه في صدره واتهمه بالخيانة، وأنه يتصل بأحد الأشخاص من مصر ينتمي لطائفة الحشاشين لمساعدته لاسترداد مُلك أبيه.

تبلبل عقل أورخان ووقف مبهوتًا أمام ما يسمعه، فانتهز إبراهيم باشا فرصة تلعثمه واتهمه بمحاولة قتل السلطان عن طريق المسبحة التي أعطاه إياها، بعدما وضع عليها نوعًا مخصوصًا من السم الذي

لا يقتل في الحال، ويحتاج لشهور وربما سنين ثم أخذ يحكي للسلطان قتله للجندي الصربي دون أن يريق دمه عن طريق قطعة من البوص، وهي إحدى خدع الحشاشين.

اندفع أورخان وأمسك بتلابيب الصدر الأعظم فاشتط إبراهيم باشا غضبًا ودفعه وهو يصيح بغضب:

- كيف تجرؤ يا ولد؟

ثم استل سيفه مهاجمًا إياه، فأستل الآخر سيفه ليدافع عن نفسه وخرج الوضع عن السيطرة خاصةً أن الباشا مبارزٌ لا يشق له غبار، لكن أورخان تمكن من تفادي القتال معه بحركةٍ بارعة بعد أن استند على سيفه ودفع بقدميه بالحائط ليدور في الهواء نصف دورة ليطيح بالصدر الأعظم، فاشتد غيظه فأشار إلى "القاب قولي" لقتله فاندفعوا نحوه دون إذن السلطان.

فوجئ السلطان بأن قاعة العرش تحولت إلى ساحة قتال بسبب تهور إبراهيم باشا، وقد حاول في البداية أورخان مناوشتهم ليهرب، لكنهم اضطروه لقتالهم ثم جرحه أحدهم في ذراعه، و بدأ العدد يتزايد من حوله فاضطر أن يدافع عن نفسه واحتدمت المعركة حتى تخضبت الأرض بالدماء، ضاق صدر السلطان بمنظر جنوده الصرعى لكنه أراد إحضار أورخان حيًا ليحقق في كل مزاعم إبراهيم باشا، ولما يئسوا من مبارزته بعدما قتل خلقًا كثيرة، عمدوا إلى حيلة فأحضروا عُصي طويلة ليضربوه بها، فيخذله ذراعه ولا ينالهم بسيفه لكنه ظل ينافح عن نفسه حتى أصابته إحدى الضربات الطائشة فسال دمه وسقط مغشيًا عليه.

وأرزاقٌ لـنـــــا مـتـفـرِّقـــاتٌ،
فمـــــنْ لم تأتِـــهِ منَّـــا أتـاهَـا
ولا تجـــــزع لـحـادثة اللّيـــالي ،
فكــلُّ مصيبةٍ يأتـــــي انتهـــاهَـا
مشينـــاهَا خطًى كُتبتْ علينَـــا،
ومن كُتبتْ عليه خطًى مَشاهَا!!
ومـــنْ كـــانتْ منيُّتـه بـــأرضٍ ،
فليسَ يمـوتُ في أرضٍ سواهَا!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الحادى عشر

الخُطي

(1)

حط طائر النحس الأسود على أكتاف الجميع بعد تسرب الخبر وحدثت ثرثرة كثيرة في أروقة الإعلام أثارت زوبعة كبيرة، لكن كل هذا بلا قيمة بقدر ما قامت به زوجة القتيل التي أبلغت سفارة البلد الآخر الذي يحمل جنسيته بمقتل زوجها وتقاعس السلطات معها، ونتيجة لهذا تلقي اللواء كمال جعفر اللوم من وزير الداخلية شخصيًا وهدده بإحالته للتقاعد.

اضطرب كمال جعفر وجن جنونه فصب جام غضبه على زكريا ومؤمن وعبثًا حاولا أن يشرحا له أسباب التأخر في حل القضية لأنه لا توجد أية خيوط تساعد في حلها، بسبب هاتف الضحية المُحطم والمغلق بكلمة سر عبارة عن مزيج من الأرقام والحروف، وحارس العقار المُختفي من قبل توقيت الوفاة بحوالي أربع وعشرين ساعة، ومع ذلك فقد تم نشر تعميم بصورته في كل أقسام الشرطة والكمائن لكنهم حتى الآن لم يتوصلوا لأي نتائج، ومع ذلك فهذا ليس كافيًا في نظر السيد اللواء وكان رده الوحيد وهو يتميز غيظا:

- هذا ليس شُغلي يا حضرات، تصرفوا.

خرج مؤمن من الغرفة يكاد يتعثر من الغضب متخبطًا في كل من يصادفهما في طريقه شاعرًا بالحنق والمرارة تملأ نفسه، وبجواره زكريا الذي لما رآه وصل إلى هذه الحالة تجنب توجيه أي كلامٍ له حتى يهدأ، لكنه ظل يتابعه من بعيد وهو ينزل درجات المبنى ثم دخل إلى مكتبه.

جلس مؤمن قليلًا في مكتبه لكي يهدأ قليلًا لكنه لم يُفلح في تمالك أعصابه وظل يسدد ضرباته للمكتب والحائط، فدخل عليه زكريا محاولًا تهدئته عارضًا عليه توصيله، لما وصلا سمعا مجذوبًا يشدو بأبيات من الشعر:

- مشيناها خُطى كتبت علينا، ومن كتبت عليه خُطى مشاها، ومن كانت منيته بأرضٍ فليس يموت بأرضٍ سواها.

ضاق مؤمن كثيرًا وحزن فقد كان ارتاح من الصراعات الوظيفية وضغوطها النفسية، بعدما استقر في المشرحة وقرر الهجرة بلا عودة، ثم يداعبه الأمل مرة أخرى بعد العرض الذي تلقاه برد اعتباره لكن يأتي الواقع ليصدمه بقسوته مرة أخرى، لم يقطع عليه تأملاته الصامتة سوى صوت زكريا يسأله عن أبيات الشعر فهو يشعر بأنه سمعها من قبل، فابتسم له مؤمن في مرارة وقال له:

- أبيات الشعر تلك من المخطوطة إياها يا حضرة المحقق.

فضرب زكريا رأسه بغيظٍ قائلًا:

- كم أنا غبي، وكيف لم أنتبه لهذا!

تذكر مؤمن المخطوطة بسبب أبيات الشعر التي قالها هذا المجذوب الذي يهيم وجهه وقد كانت مقدمة لفصل جديد في حياة الأمير، فقرر أن يعود للقراءة مرةً أخرى لكنه عليه أن يواجه أمرًا آخر من الأمور التي يهرب منها في حياته.

فتح مؤمن باب البيت وتوقع أن تكون أمه كعادتها في انتظاره فتمنى في سره ألا تفاتحه في ما اعتادت عليه دائمًا وصار يتهرب منه مؤخرًا إنه "الزواج"، لكنها على غير العادة سألته هل تعد له العشاء فاستحى منها واتجه للمطبخ لتجهيز الطعام ثم جلس في صمت، لكنه لم يخفَ عليه أنها ترقبه من طرفٍ خفي أثناء مشاهدة التلفاز وتحاول أن تُبدي التشاغل، ثم انسحبت ملقية تحية المساء وهو متوقع أن تثير الأمر لكنها فوتت عليه هذه الفرصة، فقام على الفور ليختلي بنفسه مع المخطوطة وشعر بالأسى والرثاء يتملكانه لا يدري أعلى حاله، أم حال الأمير الذي أغشي عليه ثم أفاق ليجد نفسه فقد بصره ومنفيًا بدون ذنبٍ اقترفه أو إثمًا ارتكبه، وشعر مؤمن بأنه يذوب مع سحر بيان المخطوطة وكاتبها الذي أخذ يصف بدقة القُمرة التي يجلس بها الأمير وصوت الأمواج تُداعب السفينة وأصوات النوارس، وبجواره إدريس يحاول أن يُسري عنه وشعر بأنه جالس بينهم يستمع إلى حوارهم.

إدريس:

- ما بين صخرٍ وصخر ينبت الزهر، وما بين عُسرٍ وعسر ينبت اليسر.

الأمير:

- أفٌ لك ولما تقوله يا إدريس، أي صبر وأي يسر هذا وقد فقدت بصري ومعه فقدت كل شيءٍ.

فحزن إدريس من رد الأمير عليه:

- لعله خيرٌ أن نذهب سويًا إلى قسطنطينية([32]).

رد عليه الأمير بحنقٍ شديد والكلام يخرج من بين أسنانه:

- أي خيرٍ يا إدريس ونحن منفيون عن أرضنا لدسيسة من إبراهيم باشا، وقد أُهدر حقي في إثبات براءتي وأُصبت بالعمى، لأفاجأ بأنني أميرًا ابن سلطان وحياتي السابقة محض كذبٌ وأنت المتسبب في هذا لأنك أخفيت الحقيقة عني وقد راجعتك أكثر من مرة، فلماذا أخفيت الأمر؟

زفر إدريس بحرقةٍ ونزلت من عينيه دموع وسمع أورخان صوت نهنهة هزت قلبه، فمد كفه يريد أن يُربت على كتف إدريس، ثم قال له:

- سامحني يا إدريس، لكن كنت لي نعم الرفيق بل أبًا، لكن لما أخفيت عني نسبي؟ وكيف طاوعك قلبك يا إدريس؟ إن ما تعرضت له من محنةٍ لا يقوى عليها الطود العظيم فما بالك بي وأنا البشر الضعيف، ما بين ضياع الإمارة وخيانة الصاحب والعمى.

مسح إدريس دموعه ثم قال له:

- هون عليك يا أمير، فلم تكن حالك بأصعب من حال أبيك رحمه الله، وقد وقف وحيدًا يحارب جيش بني عثمان بعدما غدر به كل أمرائه وأصحابه وباعوه رخيصًا، لكنه لم يستسلم، وفي النهاية قُتل غدرًا واغتيالًا، أما أنت لم يخُنك أحدٌ.

هنا تأفف أورخان وقال له:

- كيف يا إدريس وأنت أخفيت عني أصلي، وكان ذلك السبب في ما وقعت فيه، أما علاء راح يتحسس أخباري، قل لي؟!

فرد عليه إدريس:

- علاء الدين ليس خائنًا ولا أنا، لكن عليك أن تهدأ وتجلس لتفهم ما خُفي عنك ثم احكم، لذا ستكون البداية من عندي وعلاء كفيلٌ بنفسه.

خرج صوت إدريس عميقًا وكأنه يأتي من جبٍ عميق مُحمل بالأسى والحزن الشديد:

- فما إن رأيت مولانا السلطان الأشرف معلقًا جسده على باب زويلة بعد العز والجاه ليترك جُثمانه لثلاثة أيام كقاطعي الطرق أو ناهبي القبور، اسودت الدنيا بعينيّ بعدها وشعرت بالنار تتقد في صدري لا يطفئها سوى الثأر، ثم يحول القدر بيني وبين السلطان سليم، يسبقني إليك ويرق قلبه لحالك وأنت وليدٌ صغير، فيقرر أن تُربى بين الأمراء في قصره بإسلامبول، ويطلق عليك أورخان اسم جدهم، ولربما هو شعر بالندم بعد غدره بالسلطان، وخشيت إن قتلته أن تكون أنت ضحية فعل أرعن، فارتأيت تأجيل ثأري وضحيت بكل ما لي من أجل ملازمتك فاندسست مع من أخذهم السلطان للخدمة بقصره فأضمن مرافقتك ورعايتك، ورأيتك تكبُر أمام عينيّ وكأنك ولدي من صُلبي، ونسيت أمر الزواج تمامًا، وكم تمنيت أن تكبُر سريعًا لكي أحصل على انتقامي وانصرف لحياتي، لكن يعاجلني القدر مرة أخرى فيموت السلطان سليم، وتتغير خططي وأقرر دفن السر إلى أن نفذ المقدور وانكشف المستور.

رام([33]) صمتٌ على المكان ثم خرج صوت الأمير مبحوحًا كمن يكتم غضبًا عظيمًا وطلب من إدريس أن يأتي له بعلاء الدين ليفهم ما قصته هو الآخر رغم علمه بوجوده وهو يسمع أنفاسه، ولم يكد إدريس يفتح شفتيه حتى فوجئ بالأمير ينظر نحو مكان علاء ويقول له:

- وأنت يا رفيق الدرب، ما قصتك؟ أعلم بوجودك معنا لكنني أردت أن تظهر بنفسك.

اندهش كلاهما منه وتلجلج علاء الدين أمام المفاجأة وأحس بأنه يغرق في حرجه ثم همهم بطريقة غير مفهومة، فطلب منه الأمير أن يرفع صوته قليلًا، فتنحنح محاولًا استجماع نفسه وقال له:

- يعلم الله أيها الأمير أني لم أخنك، لكنه إبراهيم باشا من أغواني.

الأمير أورخان:

- وأين أُختنا يا علاء؟

فرد علاء الدين على الفور:

- لم أنسها يا أمير، وقد رفضت كافة إغراءاته، لكنه لما استيأس من رفضي اتبع أسلوبا آخر فأخرج بضعة تقارير أتى بها البصاصون تحكي عن نشاطات غريبة لك ورجل استجوبه الصدر الأعظم بنفسه اسمه فرحان كان يعرف العم إدريس، ثم صارحني بحقيقة شكوكه حولك وعن كونك لم ترعَ جميل السلطان وتسعي للانقلاب على أبينا السلطان لإرجاع مُلك أبيك الضائع وتتصل ببعض قومك

من أجل ذلك، ولولا حظوتك عند السلطانِ لكان للصدر الأعظم شأنًا آخر معك، لذا فهو بحاجة إلى الدليل القاطع، بالبدء، خرجت من عنده لا أصدق ومع ذلك لا أكذب، لكن اختفائك من حينٍ

لآخر واختلاطك بذلك الرجل المصري الأشيب ذو اللحيةِ الصهباء أثار الريبةَ في نفسي، ورؤيتي له وهو يدربك على اللعب بالسيف بطرقٍ لم نألفها في مدرسة الانكشارية وحركاته البارعة عندما كان يطير في الهواء ثم يضرب، كم كان حاذقًا وتمنيت في نفسي أن أتعلمها لكن الظنون كانت يومًا بعد يوم تكبر في نفسي وسقطت بالفخ، وصرت أرسل بتقاريري للصدر الأعظم إلى أن ذهبنا سويًا إلى قلعة الأسد الكاسر.

الأمير على الفور:

- وما الذي تغير وقتها؟

استشعر علاء الدين الحرج، فتنحنح ثم قال له:

- سيدي الأمير لقد رأيتك بنفسي كيف استطعت حماية الجيش من فتنة الانقسام بعدما آثرت الأمير مُحمّد على نفسك وجعلته هو القائد، وهذا ما أثار حيرتي أكثر وقد كانت فرصتك لتلمع وتظهر أمام السلطان، فأسررت شكوكي في نفسي إلى أن رآني يومًا الأغا مصطفى البوشناقي أرقبك من طرفٍ خفي فأخبرته بما حدث، وللحق كان حاسمًا في هذه المسألة ونهرني بشدة.

ضرب الأمير بقبضة يده على منضدةٍ أمامه، ثم التفت نحوه يسأله:

- إن كان حقًا ما تقوله، فلماذا لم تشهد بالحق؟

علاء الدين بدون تردد:

- بل شهدت أيها أمير.

الأمير بأسى شديد:

- فلما أمر السلطان بنفينا إلى قسطنطينية بدلًا من إبراهيم باشا.

فربت إدريس على كتفه بحنانٍ قائلًا:

- هذه شُئون المُلك يا ولدي، فالسلطان يخشى إن فُشي الخبر أن تدب الفتنة في صفوف جنوده، وأنت تعلم حب الانكشارية لك وولائهم وقد يثوروا عليه، والباشا هو زوج أخته وله أيضًا محبيه.

هز أورخان رأسه كمن فهم ما غاب عنه، وسالت من عينيه دموع القهر في صمتٍ موجع تاركًا مجلسهم ليذهب إلى سطح المركب لتتسم هواء البحر، فإنه وإن لم يكن يرى البحر فيكفيه أنه يبث للبحر شكواه، ثم تذكر فجأة شيئًا فتحرك مثل الملسوع متجهًا نحو قُمرته لكنه فوجئ باختفاء إدريس وعلاء الدين، فلما سأل ريس البحر عنهما أخبره بنزولهما إلى الشاطئ في مركبٍ صغير لكن سفينتهم لكبر حجمها يلزمها انتظار المد.

شعر أورخان بخيبةِ أملٍ كبيرة فهو كان لا يملك الانتقام من السلطان سليم قاتل أبيه لأنه قد واراه الثرى، لكنه يقدر على الأقل أن يبحث عن الأميرين الخائنين خاير بن ملباي وجانبردي الغزالي ويشفي غليله بالثأر، لكن كيف وقد انصرف كلاهما؟ فكيف له أن يعرف إجابة سؤاله المحير، لكن الشخص الأكثر حيرة كان "الريس عثمان" ريس البحر فهولا يعرف الأمير لكن كل الأوامر التي تم توجيهها إليه كانت مشددة وشخصية من السلطان بالحرص على راحته وسلامته طوال رحلته من إسلامبول إلى قسطنطينية، وقد شاهد معه أمورًا عجيبة لأنه ظنه بالبداية بصيرًا ثم فوجئ أنه أعمى ومع ذلك يتحرك كالمبصرين، يرجع الفضل للمرجاوي وتدريباته فما أكثر ما تمرن على حمل السيف والطعان وهو معصوب العينين لتقوى بصيرته ويستخدم بقية حواسه، فأصبح حاد السمع وبإمكانه أن يميز الأصوات بسهولة ويتحسس الأشياء، لكن حين غاب عنه إدريس صار يتخبط بكل شيءٍ مثل بقية العميان، وعثمان يتعجب من حاله لكنه لا يجرؤ على مفاتحته خشية إثارة غضبه فقد شاهده عندما تنتابه نوبات الغضب كيف يتصرف.

مرت الليلتان كأطول ما مر بحياة أورخان الذي اعتاد على وجود إدريس الدائم، فما الذي دفعه في هذه اللحظة للاختفاء، وبدأت الهواجس تلعب بعقله، وسأل نفسه:

- هل من الممكن أن يكون قد ملّ البقاء معه وقرر العودة؟!

ثم عاد لنفسه يسألها:

- كلا لا أظنه يفعلها؟

وأي عودة إلى إسلامبول أم القاهرة ولمن يعود، وكيف يعود ومعه علاء الدين، كم استوحشت من دونك يا إدريس، وشعر بغصةٍ في قلبه وقرر أنه حين يظهر ليعاتبنه عتابًا شديدًا ويلومه لأنه لم يخبره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

يتدفق رنين الهاتف في غرفة المكتب ليكسر رتابة الهدوء الليلي في المبنى الحكومي القديم، فيرفع زكريا سماعة الهاتف وفي نفس الوقت يدق الباب ليدخل أحد الضباط المعاونين له في القضية فيشير له بالجلوس إلى أن ينتهي من مكالمته، ويأتي صوت محدثه يخبره بأنه تم كسر كلمة السر التي على الهاتف وجاري العمل على طباعة دليل الهاتف والمكالمات الأخيرة.

تبدو الابتسامة واضحة على وجه الضابط فيسأله زكريا بتجهم عن سر هذه الابتسامة فيخبره بأنه تم القبض على "حمدان" حارس العقار في سيارة متجهة من "ألسلوم" نحو "الحدود الليبية" وجاري ترحيله إلى العاصمة، فيتنهد زكريا بارتياحٍ ظاهري لكن الضابط يكمل كلامه متعجبًا من تصرفات حمدان الذي لم يحاول الهرب أو المقاومة بل كان كمن يتوقع حدوث الأمر وتعامل مع المسألة بكل هدوءٍ وبساطة، فرد عليه زكريا:

- بالتأكيد كان يعلم بأنه مطلوب، لذا حاول الهرب.

الضابط:

- الغريب يا فندم أنه يردد أبياتًا من الشعر تشبه أقوال المجاذيب "مشيناها خطى كُتبت علينا، ومن كتبت عليه خطى مشاها، ومن كانت منيته بأرضٍ فليس يموت بأرض سواها"!

تعجب كذلك زكريا من هذه المصادفة التي تحدث لمرةٍ أخرى في نفس اليوم وتسمعه نفس الأبيات مرةً أخرى، فأدارت في نفسه حديثًا قديمًا عن آماله وأحلامه وأن كلية الشرطة تلك لم تخطر له على بالٍ، لكنها الخُطى والأقدار في حياة كل إنسان.

مد يده ليتصل بمؤمن للاطمئنان عليه ثم تراجع وقال لنفسه، لعله نائمٌ لكنه لم يكن كذلك وإنما في حالة من الصمت يتابع بشغفٍ ما جرى للأمير الذي نزل من السفينة لا يلي على شيءٍ فلا وجهة محددة له فقط أراد النزول من السفينة إلى البر، وربما كان يبحث عن إدريس، لكنه في حقيقة الأمر كان يبحث عن نفسه التي تاهت وفقدها

بعد الظلمة التي غشيت عينيه وقلبه، حتى سمع ذلك الصوت الحزين الشجي يشدو بأبيات من الشعر:

وأرزاقٌ لــنـــــا مــتفــرِّقـــاتٌ.. فمـــــنْ لم تأتِــــهِ منَّـــا أتــاهَــا.

ولا تجـــــزع لـحـادثة اللّيـــالي.. فكـــلُّ مصيبةٍ يأتــــــي انتهـــاهَــا.

مشينـــاهَا خطًى كُتبتْ علينَـــا.. ومن كُتبتْ عليه خطًى مَشاهَا!

ومــــنْ كــــانتْ منيُّتــه بــــأرضٍ.. فليسَ يمــوتُ في أرضٍ سواهَا!

مادت الأرض من تحته وكاد أن يسقط على الأرض لولا أن يدًا قويةٌ لحقت به وحالت بينه وبين ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

المنفي

(1)

حالت تلك اليد القوية دون سقوطه على الأرض فاستند إليها وشكر لصاحبها الذي رد عليه بصوتٍ يعرفه تمام المعرفة، إنه إدريس تابعه المخلص وتلاحقت أنفاسه من المفاجأة وعباراته الحانقة والعاتبة ثم أحتضنه وبكى، ففهم إدريس ووعي لسر حاله، فقد عاش هذا من قبله وقاسى ما يقاسيه الآن لولا أنه تعلم على يد العلامة "أبا السعود الجارحي" ومعه وجد روحه التي تاهت منه ثم عادت إليه، بعدما انتبه من سكرته فقال له إدريس:

- أو تدري يا أمير، إن الحق ليس بمحجوبٍ إنما المحجوب هو أنت عن النظر إليه.

الأمير بدهشة:

- ما هذا يا إدريس؟ أعُدت مرةً أخرى لأحجياتك!

يضحك إدريس ويُربت على كتف الأمير:

- ليست بأحجياتٍ يا أمير، إنما ما علمني إياه العلامة أبا السعود الجارحي.

الأمير:

- زدني يا إدريس، فأنا لم استوعب بعد.

أشع الرضا من وجه إدريس وانساب الكلام من فمه عذبًا يشرح له معاني الكلام الذي استغمض يحكي له حكمة الله في أقداره، وأن الإنسان أحيانًا لا يرى تلك الحكمة فيظل محجوبًا عن الحق، والأمير يصغي إليه، ثم قام إدريس من مكانه قائلًا له:

- أنت مرهقٌ وعلينا الذهاب الآن.

ثم سحبه من ذراعه كطفلٍ صغير، فضاق الأمير بذلك:

- إلى أين؟

لم يحر إدريس ردًا فاغتاظ الأمير أكثر، فهو حتى الآن لم يفهم أين غاب عنه، ولا يعلم سر اختفاء علاء الدين، ولا معاني كلماته إلا بعد شرحٍ وجهدٌ جهيد فتوقف عن المسير، فعاد إليه إدريس وقال:

- سوف ترى إنها مفاجأة؟

الأمير:

- أرى! وكيف هذا؟ سوف أرى بعينيك يا إدريس.

همهم إدريس في حرجٍ ثم لم يمهله فرصةً أخرى للمزيد من نقاشٍ بلا طائل وجرجره من ذراعه وركبا عربة تجرها الخيول سارت بهما برهة من الزمن، ظل خلالها إدريس يحكي للأمير عن نُبل أخلاق علاء الدين الذي حاول مرارًا أن يعتذر له لكن كانت شجاعته تخونه، فقرر الاستئذان ومرافقتهما في رحلتهما فقد كان يشعر أن هذا أقل القليل في حق صاحبه الذي أنقذ حياته، وظل

إدريس مسترسلًا في حديثه يقص على الأمير ما يعرفه عن الجزائر وأهلها، إلى أن وصلا إلى المكان المنشود وشعر أورخان بأن أصوات الباعة تهدأ تدريجيًا حتى تلاشت، ففهم أنهم ابتعدا عن القصبة ([34])، ثم توقفت العربة وسمع صوت شقشقة العصافير وكأنهما في رحاب القصر السلطاني، بعدها نزلا وصفق إدريس بيده فسمع الأمير صوت مزلاج وفتح بابًا ثقيلًا وصوت يرحب بإدريس والأمير وسارا إلى الداخل، وعلى الفور قال له الأمير:

- ها قد وصلنا، أين نحن؟

- في غيابك عن الوعي وعودتك الكثير من الأمور حدثت، وقد ترك مولانا السلطان لك مالًا يكفيك لتحيا حياةً كريمة تليق بأمير وقد أخذت بعضًا منه، وسوف يقوم الريس عثمان بنقل بقية الصناديق إلى هنا، وقد اشتريت هذه الدار المبنية على طُرز الأندلس واخترت وكالة رحيبة بالقصبة لتكن مقرًا لتجارتك التي سوف تفتحها.

بدا التعجب على وجه الأمير! فهو لم يفكر يومًا بأن يكون تاجرًا وكل ما يجيده في حياته هو القتال وصناعة السبح، لكن لمرةٍ أخرى لا يمهله إدريس كثيرًا ويقول له بأسلوبٍ واثق:

- أعلم ما تخطط له، لكن ما تتمناه وتصبو إليه نفسك لن يتحقق بقوة السيف وحدها، إنما هو يحتاج لصبر الذئاب ومكر الثعالب.

تململ وتحير واضطرب شأن الأمير رغم رباطة جأشه ورجاحة عقله أمام فراسة إدريس الذي اكتشف كل ما دار بعقله، ويكشف عن مخططه بعدما صارت الرغبة للانتقام عنده أقوى، لكنه لم يكن فكر بعد كيف يصل إلى هدفه لكن ها هو إدريس يخطط ويدبر وتاه عقل أورخان في نبوءة العراف في تبريز عن حياته التي سوف تملأها الأحزان، ولم يقطع عليه تأملاته سوى مجيء الريس عثمان يحمل بقية أغراض الأمير وأمواله إلى قصره، فانتبه على صوته فذهب مع إدريس لتحيته وإكرام وفادته لكنه بدا وجهه يحمل علامات الأسى، فلما سألاه عن سبب تعكر مزاجه والحزن الذي يبدو عليه فأخبرهم بمقتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا.

وفي صوتٍ واحد ردا عليه:

- قُتل؟!

أورخان بفضولٍ شديد لم يقدر على كبحه:

- لكن كيف هذا؟

حرك الريس عثمان كتفيه في حركة تعني بأنه ما يدري، وأخبرهما بأن الخبر وصل حالًا من إسلامبول إلى بيلك([35]) الانكشارية ومنهم علم الخبر وأن السلطان اختار قسطنطينية كأبعد ولاية له لدفنه بعدما ساءت الأمور بينهما، كان وجه الريس عثمان يبوح بالكثير من المعاني التي اجتهد في إخفائها لأنه كواحد من رياس البحر اعتاد الطاعة وحفظ السر، لكن بعد انصرافه خيم على المكان سكون وعاد أورخان لحالة الشرود الذهني مرة أخرى وأطرق برأسه إلى الأسفل وما عاد يسمع إدريس، ثم رفع عينيه ونظر إلى الفراغ أما عقله كان بمكانٍ آخر فسأله إدريس:

- ما الأمر يا أمير؟

- ما هذا يا إدريس؟

- كل شيءٍ له سبب يا أمير، ومجيئك إلى هنا ثم الباشا ولحاقه بك ما هو إلا جزء من قدرك، لكن الحكمة الإلهية خافية علينا الآن ولا تُدركها عقولنا القاصرة ويكفينا أن غريمك نال جزاءه وقُتل، والآن بإمكانك أن تحيا هنا هانئًا ونفتح تجارة طيبة تُدر علينا ربحًا وفيرًا وتتزوج وأفرح ببنيك وبناتك.

- لكن مهمتي لم ننتهِ بعد يا إدريس، طالما أن الأميرين الخائنان على قيد الحياة لن أتركهما أبدًا ما حييت...

لم يسمح له إدريس بالمزيد من الاسترسال في الكلام قاطعًا عليه حديثه:

- بإمكانك أن تنفذ ما تنوي ويجب عليّ أن أساعدك وفاءًا لأستاذي، لكن واجبي الأكبر نحوك أن أبصرك بالعواقب فالثأر لن يروي ظمأك فهو مثل ماء البحر كلما شربت كلما ازددت عطشًا.

لمعت عينا الأمير ببريقٍ مرعب وندت عنه زفرةٌ وهو يردد اسميهما بصوتٍ كالفحيح، ثم تناثر شراب الورد على ملابسهما وتخضبت كف الأمير المطبقة على الكأس بالدماء وخرج الكلام من بين أسنانه:

- وهل ترى لي بديلًا عن الانتقام؟ إنه قدري الذي أحمله فوق كتفيّ.

إدريس:

- كلا ليس بقدرك، بل أنت مُخيرٌ في قرارك وما زال لديك فرصةٌ أخرى لتبدأ من جديد لكنك تُصر دومًا على رأيك، وما دام استقر عزمك فلن أقدر على تغيير ما برأسك.

كور الأمير قبضة يده بغضبٍ ثم ضرب الحائط موجهًا كلامه إلى إدريس بصوتٍ أجشٍ عميق:

- حسنًا فليكن ما تراه يا إدريس، المهم أن نأخذ بثأرنا.

بدأ إدريس يفكر مع الأمير في خطةٍ مناسبة تَصلح، ووجدا أن البقاء في قسطنطينية يعرضهما للخطر وتركها قد يثير شكوك السلطان وهما لا يعلمان شيئًا، فمن الممكن أن يكن هناك من يترصدهما، فحزم إدريس أمره على أن يسبق الأمير إلى ولاية "تلمسان" بعيدًا عن معسكر الانكشارية وهناك سوف يشتري دارًا أخرى وسوف يترك هنا هذه الوكالة تعمل لبضعة أشهر ثم يُقفلها لكي تبدأ أسطورة السيد "داوود أوغلو" في الظهور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

مرت السنون سريعًا وشمس تلمسان لفحت بشرته فزادته وسامَة وبهاءً، أما اللحية التي أطلقها منحته شيئًا من الوقار وغيرت من ملامحه قليلًا، لكن الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو رغبة الانتقام التي ظلت تنمو في ظلام نفسه ويذكيها مرارة الصبر والانتظار حتى صارت شغله الشاغل وهمه الوحيد، فسخر لها كل شيءٍ وصارت داره قبلة القصاد واسمه يعرفه القاصي والداني ومجلسه يضم العلماء والكبراء، ورياس البحر وقادة الانكشارية، وبعضًا من رؤساء القبائل، وبطبيعة الحال تُجار من أماكن شتى من تونس أو "سرت" أو "بلاد السودان الشرقي والأوسط"، الكل يتمنى أن ينال رضاه وتجارته امتدت من تلمسان وحتى سرت ومن تلمسان إلى "تنبكت" ([36]) وصارت تربطه علاقات قوية بحكام مملكة "تكرور"([37]) و"بلاد الفونج"([38]) أما قوافل تجارته لا تنقطع صيفًا أو شتاءً ولا يقدر أحد أن يقطع عليها الطريق أو يضايق من التحق بها، لكن كل من قابل السيد داوود أوغلو أو عرفه يدرك أنه رجلٌ له شأنٌ عظيم تبدو عليه هيبة الإمارة وعلائم القيادة وهو ما لم يعهدوه في أي تاجرٍ من قبل، كذلك تابعه إدريس يبدو قويًا حصيفًا أقرب لقائد أو تابع أمير لا مجرد مولى لتاجرٍ ثريٍ، لكن أعطيات السيد داوود أوغلو السلطانية كانت تكفي لتُغلق الأفواه وتغض الأبصار ومن يأبىً يحتمل العواقب.

استخدم أورخان كل ما هو مقبول وغير مقبول لكي تنمو تجارته وهو يتحرق للانتقام، لكن مسلكه لم يرضَ عنه إدريس الذي كان دوما بجواره ويخشى عليه عاقبة الأمور التي يفعلها حتى تطور الأمر وقالها له إدريس صريحة:

- سوف أقص عليك حكاية أيها الأمير، ففي يوم من الأيام رأى الديك أحد الطيور البرية يتغذى على الفضلات فجعلته أقوى وأقدر على الطيران، فقرَّر أن يقلده وفرح الديك لأن الأمر آتى ثماره سريعًا وبدأ يعلو من فرعٍ إلى فرعٍ حتى وصل إلى أعلى الشجرة، في هذه اللحظة شاهده صيادٌ كان يمر بالمكان فقنصه.

- فسأله الأمير: وما المغزى من هذه الأحجية الجديدة؟

- فكان رد إدريس حادًا: إن ظننت هذه الطريق الملتوية التي تتخذها سوف تنفعك فأنت واهمٌ وسوف تضيع نفسك ومن حولك.

انصرف إدريس بعد هذه المحادثة غاضبًا وتحرك للاستعداد للسفر مع السفن المتجهة إلى حلب أولى محطاته وبداية مخططاته، كذلك هي المرة الأولى التي تصل فيها تجارته إلى بر الشام وأول مرة يختلف الاثنان "الأمير وإدريس" لكن غضبة إدريس كانت بمثابة الصفعة التي جعلت الأمير يستفيق إلى أن الطريق التي انجرف بها سوف تقوده إلى الهاوية.

لحق الأمير بإدريس عند الميناء واستسمحه ووعده برد كافة المظالم لأهلها، فسُرّ إدريس لذلك ووعده بأن يأتيه بكل ما يرضيه وتحركت السفينة من ميناء تلمسان في السادس عشر من ذو القعدة الموافق947هـ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثالث عشر

تدابير القدر!

حالت تدابير القدر دون تدابير البشر وغابت السفينة لثلاثة أيام في عرض البحر وأيس الناس وانقطع رجاؤهم من عودتها، لكن تدابير القدر حالت دون تدابير البشرً!

أصاب الجزع قلب الأمير وشعر بالوحدة وشعر بالذنب لأنه أرسل إدريس إلى حتفه، فلما عاد إليه كانت فرحته لا تُقدر بثمنٍ أما إدريس كان سعيدًا لأنه عاد وبرفقة ضيفه "فخرالدين قباوة".

فخرالدين قباوة تاجر شامي أصيل في حرفته التي ورثها عن أبيه وجده، واضطرته ظروف الحاجة والعوز للخروج قبل أوانه ليبدأ من القاع بعد مرض أبيه وموته وضياع تجارته، فأخذ يتدرج من تاجرٍ جوال يطوف بالبيوت إلى أن صار له دكانًا بالسوق، لكنه مع ذلك ظل وفيًا إلى بداياته الأولى التيً اكسبته بُعد النظر وحُب المغامرة لذا لما تناهى إلى سمعه أخبار السيد داوود أوغلو وجدها فرصة عظيمة للربح، فلو رضي أن يصبح وكيله لفُتحت له أبواب الرزق.

ركب البحر لمقابلة السيد داوود أوغلو لكنه لم يَقدر أن يصل إليه وعاد يجر أذيال الخيبة ليسوقه قدره للسفينة التي كادت أن تنقلب، وهناك قابل إدريس الذي رأى بحدسه أنه خيرٌ من يصلح أن يكون وكيلًا لأعمال الأمير بالشام، شابٌ نشيطٌ بشوش الوجه باسم الثغر طلق اللسان يبحث عن الكسب الحلال، لذا سوف يبذل قصارى جهده لإثبات جدارته وهذا سيكون كافيًا لإشغاله حتى يتفرغ هو لمهمته، لكن فخرالدين أيضًا لم يفته أن السيد داوود أوغلو دخيلٌ على حرفتهم لكنه فضل الاحتفاظ برأيه لنفسه.

فقد الأمير صبره بعد طول الانتظار وتاقت نفسه ليُبر بقسمه ويشفي غليله، ولما وجد أن أموره مُسهلة رأى أن يُرسل بإدريس إلى حلب وفخرالدين إلى دمشق، فلما سمع فخرالدين بأمر حلب سُر كثيرًا لهذا وعرض خدماته على الفور فهو ابن حلب وفيها دار أبيه والجميع يعرفونه، ولم يجد إدريس أي بُد من التأجيل.

على الرغم من اختلاف طبائعهما إلا أن إدريس لم تزعجه طبيعة فخرالدين الثرثارة القلقة، فهو دائب الحركة ولا ينقطع عن الكلام إن لم يكن مع إدريس فمع ركاب السفينة، لكنه سَعد بها لأنها حالت بينه وبين رحى الذكريات التي كلما دارت أثارت شجونه ومخاوفه على الأمير الشاب.

الغريب بالأمر أن وكالة حلب ازدهرت سريعًا وذاع صيتها عكس وكالة دمشق التي صادفها التعثر وسوء الحظ ولم تتحسن الأمور فيها إلا بمجيء إدريس إلى دمشق! من يومها أطلق فخرالدين على إدريس لقب "إدريس الحكيم" وصار يستبشر به ويُجله ويُسر إليه بما يزعجه أما إدريس وجد المخرج له من إلحاح الأمير المستمر.

لما صار إدريس شحيحًا في أخباره أغلظ عليه الأمير في آخر خطابٍ له فلم يجد إدريس أمامه حلًا سوى أن يُرسل إلى الأمير يشرح له حقيقة أمر الغزالي الذي قُتل منذ سنواتٍ عديدة بعدما أراد أن يستبد بحُكم الشام ويُعيد مجد الجراكسة، وذلك بعد موت السلطان سليم لكن السلطان سُليمان أرسل

إليه "إياس باشا" لتدور نفس الدائرة على الغزالي ويتفرق من كانوا حوله فيضطر أن يهرب من الميدان متنكرًا في زي "الدراويش القرندلية"([39]) لكن أحد أعوانه واسمه "علي بالي" يخونه و يسلم رقبته.

سبق السيف العزل وصار لدى الأمير أورخان يقينٌ خفي بأن إدريس يُدبر أمرًا ما من ورائه بحجة أنه أدرى بمصالحه منه لذا قرر أن يتحرك نحو حلب ولم تصله الرسالة، أما إدريس ظل يرتقب البريد عله يطمئن حتى فوجئ بمن يطرق عليه باب الدار، فإذا به الأمير فتلقاه بالأحضان لكنه كان جافيًا في لقائه وبخشونةٍ سأله عن رأس الغزالي!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جلس إدريس مكانه وقص على الأمير خبر موته وانتهاء خبره منذ زمنٍ بعيد فنظر الأمير له بعينين يتطاير الشرر منهما وقال:

- أليس له خلفًا نثأر منه؟

- إدريس: وما ذنب ولدٍ له من بعده؟ كما أننا لم نتفق على هذا.

- الأمير: وهل اتفقنا على أن توافقني الرأي و تُبطن أمرًا آخر في نفسك!

كسرت الكلمة الأخيرة بخاطر إدريس وسكت عن الكلام، فقال له الأمير بصوت رجاء:

- إدريس، كن عونًا لي لا عليّ.

نظر إدريس إليه طويلًا ثم قال له:

- حسنًا، سوف يحكي ويتحاكى أهل المحروسة عن أخبارك قبل مجيئك يا سيد داوود أوغلو، أما الآن فعلينا الذهاب لإغلاق الوكالة وأصحبك لمشاهدة معالم حلب.

ندت عن الأمير ضحكة هازئة وتنهد بمرارة:

- معالم؟ أي معالم التي أراها وأنا في ظلمتي تلك!

خار الأمير كالجبل وهو يردد: لا أحد يشعر بالحرقة التي تملأ قلبي.

احتار إدريس فلم يجد ما يسكنه به سوى أن يُربت على رأسه، كانت المرة الأولى التي يربت أحد على رأس الأمير اليتيم.

هدأت النفوس ومسح الأمير دمعه واستعاد رباطة جأشه ثم بدأت الضحكة تغزو الوجوه وغيّر إدريس من الطريق التي اعتادها للوكالة بأخرى على جانبيها بساتين، لكنهما لما خرجا استشعر الامير أن الخَلق هجعوا لمنازلهم والحركة هدأت، لكن إدريس ظل يطمئنه أنه فقط هذا الجزء من المدينة يتمتع بالهدوء ولم تكد تمر بضع دقائق على كلامه إلا وسمعا صوت استغاثات وسنابك الخيل تدق الأرض!

خرجت فتاتان كأنهما ظهرتا من العدم وفي أثرهما ثلاثة فرسانٍ ملثمين يحاولون اللحاق بهما فجز إدريس على أسنانه بحنقٍ قائلًا:

- إنهم الزعران الملاعين.

اتجه إدريس نحو الفتاتين وخاطب كبير الزعران وقال له:

- دع الفتاتين.

نظر كبيرهم إليه باستهزاءٍ وخاطبه:

- اذهب أيها الشيخ لحال سبيلك.

هنا أمسك أورخان بذراع إدريس بقوةٍ وهمس في أذنه فاستفز هذا التصرف كبير الزعران فاتجه مسرعًا نحوهما قاصدًا إخافتهما لكنهما لم يتحركا، فأحاطوهما حتى حاذى كبيرهم إدريس بطوله الفارع فما كان من الأخير إلا مد يده وجذبه بعنفٍ فاضطرب الأثنان الآخران واستلا سيفيهما، سمع حركتهما المضطربة الأمير فرفع عصاه وأطاح بهما من على فرسيهما، حاول كبير الزعران التملص من إدريس لكنه أخرج من ثنايا ملابسه خنجرًا حادًا، قام أحد الزعران وأمسك بالأمير من الخلف واستعد الثاني لضربه، ميز الأمير صوت مهاجمه فرفس بقدمه في صدره وتملص من الثاني ثم أوقعه أرضًا، في تلك اللحظة اختلس كبير الزعران حفنةً من التراب فقذفها في وجه إدريس الذي كان منشغلًا على الأمير، تلفت الأمير بحثًا عن إدريس فعاجله أحدهما من الخلف بحجرٍ كبيرٍ على رأسه فسقط مغشيًا عليه واندفعت الدماء من رأسه، وانفلت الزعران هاربين لما سمعوا صوت الدرك.

اندفعت الفتاتان نحوهما وظل إدريس يمسك رأس الأمير ويذرف الدمع لولا أن إحدى الفتاتين قطعت جزءًا من خمارها وربطت له رأسه لتوقف النزيف، ثم أمرت إدريس بحمله لتطبيبه.

يغيب الأمير عن وعيه وتشتد الحمى عليه ليهذي بأسماءٍ كثيرة منها الشيطانين جانبردي الغزالي وخاير بن ملباي، والفتاة لا تكُف عن وضع الكمادات الباردة على جبهته بحذرٍ كي لا يتضرر الجُرح الذي في رأسه، ثم يفتح الأمير عينيه للحظاتٍ ويصرخ بشدة ليغيب عن الوعي مرةً أخرى.

أتي "الشيخ أبوالفتوح" سعيًا لما علم بما جرى وسمع صرخاته وهذيانه بأسماء نسيها الزمن ثم بُعثت من جديد، فلما رأي إدريس عرفه رغم تغير السنين عليه يقف بادٍ عليه التضرع والوجل.

سلم الشيخ أبوالفتوح عليه باسمه ورحب به ولم يعد مفر فالماضي ما زال حيًا في صورة الشيخ ولم يبقَ سببٌ للتستر، لكن إدريس آثر التريث قليلًا، أخذ الشيخ أبوالفتوح يُسامر ضيفه وإدريس يحكي له عن التجارة وشئونها والبلدان التي زارها والشيخ يتجنب سؤاله عن أي شيءٍ تمامًا، وطال الحديث إلى أن وصلا لقصة الزعران الذين حاولوا خطف ابنته فشكره الشيخ بشدة على ما فعله وأقسم له أنه لن ينسى جميله أبدًا، فسأله إدريس عن سر خروج ابنته في هذا الوقت من الليل فقص عليه الشيخ قصته وأنه منذ قدوم السلطان سليم خان إلى مصر وهو يعمل في خدمة السلطنة وتحت أمرة السلطان المباشرة بصحبة عددٍ من العلماء وأرباب الحرف الدقيقة لمعاونته على أمر الإفرنج، لكنه يبقيهم في ولايات متفرقة تحيط بقلب الخلافة بعيدًا عن أعين عملاء الإفرنج وقد استقرت به الحال في حلب لقربها وطيب هوائها وعرفه الناس بأنه الشيخ الطبيب أبوالفتوح، لا أحد يعلم شيئًا عن تاريخه فقد كان فقيهًا وعالمًا في "الأقرباذين"([40]) بالإضافة إلى أنه من أمهر صناع الآلات الدقيقة التي تُستخدم في حسابات الوقت وغيرها، أما ابنته تعمل معه طبيبة و"قابلة"([41]) وقد كانت قادمة في ذلك الوقت لتلحق به لمساعدته فلقيها هؤلاء الزعران ولولا أن الله أرسلهم في تلك الساعة لكانت ابنته قد ضاعت، سكتا برهة من الوقت ثم نظرا لبعضهما ثم تحدث الشيخ إليه:

- إدريس، إني أعلم أنك قادم أنت وهذا الشاب لمهمةٍ ما، ولن أحاول سؤالك عن السر فأنا أسير إحسانكم.

تحرج إدريس وتململ في مكانه ثم قال للشيخ:

- لطالما كنت مشهودًا لك بالصلاح والتقوى وأعلم مدى قربك من السلطان الراحل، وقد وثقت في لذا لن أخذلك وسوف أطلعك على ما

خُفي، ظلا يتسامران والشيخ يتعجب من حوادث القدر حتى قطع حديثهما

صوت نور ابنته:

- لقد بدأ يستفيق يا أبي والحمى هدأت.

فتح عينيه ببطءٍ وظن نفسه قد خرجت روحه وأنه في الجنة، وأن من تقوم بتطبيبه هي حورية من الجنة، شعر بثقلٍ في رأسه، ظل محدقًا فيها ولا يذكر شيئًا سوى تلك الحورية الجميلة التي تطببه و سألها:

- هل أنا في الجنة؟

لم تقدر على حبس الضحكة فأخفت وجهها بيدها في خفرٍ شديد وانسحبت هي وجاريتها، ليدخل الشيخ أبو الفتوح وإدريس مسرعين ليهنئا الأمير بسلامته ويشكره الشيخ وينسى ويقول له:

- مرحبًا بسلامتك أيها الأمير.

ظل الأمير غير مدركٍ للأمر هل هو فعلا حيٌ يُرزق أم أن هذا محض خيال، فهو يسمع ويرى، رغم تشوش الرؤية بعض الشيء لكنه يرى كل ما حوله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تقدر على حبس الضحكة فأخفت وجهها بيدها في خفرٍ شديد وانسحبت هي وجاريتها، ليدخل الشيخ أبوالفتوح وإدريس مسرعين ليهنئا الأمير بسلامته ويشكرَه الشيخ وينسى ويقول له:

- مرحبًا بسلامتك أيها الأمير.

ظل الأمير غير مدركٍ للأمر هل هو فعلا حيٌ يُرزق أم أن هذا محض خيال، فهو يسمع ويرى، رغم تشوش الرؤية بعض الشيء لكنه يرى كل ما حوله.

اقترب إدريس من الأمير وقبل رأسه وأجلسه وعرفه بالشيخ أبوالفتوح، وأعلمه بأنه كان من أخلص رجالات أبيه، فحكى له الأمير عن رغبته بالثأر ممن قتلوا أبيه فهذا هو حقه وحق من ماتوا ظلمًا بسبب خيانة الخائنين، ظل الشيخ أبوالفتوح يستمع له بإنصاتٍ شديد ولم ينتبه أحدٌ منهما أنه قد استرد بصره!

نظر الشيخ أبوالفتوح إلى إدريس وسأله:

- ما العيب في رغبة الأمير، أرى ما يطلبه أمرًا عادلًا، ولا مانع أن أساعد يا ولدي على أن تُعاهدني على عدم الظلم، فإن كان لك ثأرًا فهو مع من خانوا أبيك أما أهل بيتهم فهم في مأمنٍ من غضبك فهل تُعَاهدني على ذلك؟

مد الأمير يده بدون تردد للشيخ أبوالفتوح وقد تمنى أمرًا آخر، لكنه حبسه لوقته، وجلس إدريس ضيق الصدر لا يُعجبه ما يجري لأن الشيخ أبوالفتوح أعطاه اسم أحد المشايخ المعروفين والمشهود لهم بالصلاح وكتب له رسالة لكي يُساعد الأمير دون أن يُخبره بأي شيءٍ من أمره سوى أن حامل رسالته له فضلٌ كبيرٌ عليه، وختم الرسالة بخاتمه وجهزها لكي يرسلها في الصباح.

نام جميع من بالدار إلا الأمير الذي ظل متيقظًا يُفكر في بصره الذي رُد إليه وذلك الشيخ الذي جمعهما القدر به وبتلك الحورية الحسناء التي كانت تخدمه وتشفق على حاله وتظنه أعمى، وقد سمع حديث جاريتها إليها التي وصفته بالوسيم وشاهد نظرات الإعجاب تطل من عينيها وأسئلتها الكثيرة له عن كيف قاتل الزعران بعصاه وهو لا يرى وأن هذه شجاعة يُحسد عليها، ثم ملاحظة خبيثة من الجارية لسيدتها بأنه شابٌ وسيم فلكزتها لتزجرها.

سنوات عدة مرت عليه نسي خلالها شكله والشمس لفحت بشرته وأطلق لحيته، تُرى كيف صار، أخذ يردد ذلك في نفسه وتمنى كثيرًا أن ينظر لنفسه لكنه تمنى أكثر أن تُكمل تلك الفتاة الرقيقة أسئلتها له لولا تدخل أبيها فحبس الحياء لسانه ولم يقدر أن يطلب منه أن يتركها تُكمل حديثها، والآن صار عليه الانتظار للصباح ثم تراجع عن فكرته لأنه لن يقدر على إخفاء عينيه التي سوف تلاحقها وهو لا يُريد أن يُطلع أحدًا على سره.

في الصباح لمح الأمير من نافذة غرفته الشيخ أبوالفتوح وتبين ملامحه التي يبدو عليها الوقار والطيبة يسير برفقته إدريس الذي لم يتغير كثيرًا، لربما مسح الشيب بيده عليه مسحةً خفيفة لكنه ما زال قويًا كما عهده، يتسامران في حديقة المنزل وإدريس مطرق برأسه يستمع لكلام الشيخ ويهز رأسه، فحاول أن يُصغي لكنه لم يسمع سوى عبارة الشيخ الأخيرة:

- بالنهاية سوف تضحك الأقدار عندما يخيب الشطار.

لم يفهم وقتها ما يعنيه لكنه تذكر فجأة أنه يريد أن ينظر لنفسه في المرآة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

تدابير القدر(2)

(1)

تمر عدة ساعات تناوب عدة ضباط فيها محاولة استجواب حمدان وفشل جميعهم في استخراج حرفًا واحدًا منه وظل مصرًا على ترديد نفس أبيات الشعر القديمة، مما أثار الضابط الأخير ورفض إعلان فشله فصرخ فيه:

- صدقًا سوف تندم فلا تدّعي الجنون، فأنا سوف أجعلك تندم بحق، وأحولك لمستشفى الأمراض العقلية وهناك سوف تتعلم الأدب.

نظر زكريا من زاوية الباب الموارب رآه ينتفض كعصفورٍ صغير رغم ضخامته فتأكد بصدق حدسه أنه ليس الفاعل، لكنه لم يتدخل وعاد إلى مكتبه ثم أخذته سِنَةٌ من النوم، اختلط فيها الحاضر بالماضي والواقع بالخيال، ورآه يقف في وسط غرفته يسدد نظراته الغاضبة إليه ثم انصرف، فانتفض من مكانه ومسح عينيه وأخذ يلعن في سره بهاء وأفكاره لأنه هو من نصحه بقراءة المخطوطة، فأخرجها من مكتبه وعاود قراءة الأحداث.

انشغل الامير بالبحث عن مرآة ليرى هيئته الجديدة وأخذ يسوي شعر لحيته التي لم يعتدها بعد، وإذا بجارية "نور" تدخل عليه حاملة الطعام ونسيت أن تطرق الباب ظنًا منها أنه نائم، فسقطت المرآة من بين يديه فأحدثت جلبة عظيمة وظلت الجارية تتأسف ثم خرجت مسرعة.

قلبت الحيرة أحوال نور بعد كلام جاريتها الذي لا يُعقل وخشيت أن تصارح به أبيها الذي يميل كل الميل للفتى وهي أيضًا تراه شهمًا كريمًا لكن ما السر الذي يخفيه، أيعقل أن يكون منهم؟! وظلت تتقلب طوال الليل تُفكر بحيلةٍ تكشف لها الحقيقة وهي التي تخشي أن يكون واحدًا منهم!

إلى أن هلّ الصباح ليفاجأ الأمير بنقراتٍ على بابه فلم يتحرك، فلما تحول النقر إلى طرقٍ قام ليفتح ظنًا منه أنها الجارية فإذا بها نور تقف أمامه فزاغت عيناه واحمر وجهه ولم يغب عن عينيها التغيير الذي طرأ رغم أنها لم تهمس حتى، ثم التفتت له وحيته وأكملت طريقها للداخل، ثم كادت تتعثر ويسقط ما تحمله فتحرك الأمير ليلحقها فتبسمت له ابتسامةً أكثر اتساعًا من الأولى فإذا بوجهه يشرق ويحمر خجلًا

فتطاير الشرر من عينيها وهجمت عليه كنمرةٍ شرسة وجعلت نصل السكين في نحره و بحزم سألته عن حقيقته!

ألجمته المفاجأة فلم يدر بما يخبرها وما يخفيه فهتفت فيه مرة أخرى وهى تنخسه:

- أي حقيقة تريدين وقد أخبرتكم بكل شيءٍ.

- نور: لا، بل أنت من عملاء الإفرنج.

فحاول اللجوء للحيلة فغازلها:

- يا ربة السيف والدلال، كفى بربك.

لكنها لم تهتم بل زاد ذلك من حزمها ففهم ما ترمي إليه وعلم أنه لا مجال للمراوغة واضطر أن يقص عليها خبره الذي اجتهد في إخفائه طوال تلك السنوات، وهى تصغي لتتأكد من صدق حديثه، وأيقن الأمير وقتها بأنها اللحظة المناسبة لمفاتحتها بما في بقلبه بعدما بدأت يدها ترتخى عن نحره، فاحمرت وجنتيها وانصرفت مسرعةً لكن كان هناك أذنٌ أخرى تّسمع كل ما دار!

تماثل الأمير للشفاء تمامًا ولم يعد هناك بُد من بقائه في منزل الشيخ، لكن الشيخ أصر على بقائه لكي يعلمه بعض الأمور التي سوف تنفعه.

في صباح اليوم التالي وجد الشيخ "أبا الوفا" ينتظره واستهل كلامه بسؤالٍ مباغتٍ حول رأيه في نور ابنته وإن كان يراها زوجةً مناسبة له، في البدء ملك الحياء عليه لسانه ثم انبأه بما في نفسه وكيف أنه كان يستحي أن يفاتحه خشية أن يرفضه لكن الشيخ وافق بشرط أن يتتلمذ الأمير على يديه، وتعجب الأمير من طلب الشيخ وأنبأه بأنه يحفظ شيئًا من القرآن منذ أيام القصر السلطاني لكن الشيخ أخبره بأنه يريد أن يعلمه شيئًا من الطب والكيمياء والأقرباذين وعلوم الحركة والفلك لينفعوه في مسعاه، فازداد الأمير عجبًا فكيف ينتفع بهذا في مهمة تقتصر على أرباب العزم والسيف!

لما ذهب الشيخ أبا الوفا أدرك الأمير حجم المأزق الذي وقع فيه فكيف له أن يتعلم الكيمياء ويضبط المقادير أو أن يرصد الأفلاك وشعر بغصةٍ في قلبه ظنًا منه أن نور هي التي افشت سره، فغاب عن الشيخ أبوالفتوح لفترة وأوغل في الغياب فذبلت نور وبدا ذلك ظاهرًا لأبيها، أما هو فأصبح نحيفًا كجذعٍ ميت صامت كالجبل راحته في الاعتكاف بالصحراء، فأقلق حاله إدريس لكنه أدرك أنه لو تدخلً فسوف يكابر ويعانده، لذا أرسل للشيخ أبوالفتوح يستشيره فتأكد الشيخ من صدق حدسه.

ذهب الشيخ أبوالفتوح إلى أورخان وهناك شرح له كل شيءٍ وكيف سمع حديثه الهامس إلى نور، لكنه أراد بطلبه هذا أن يتأكد من صدق مشاعرهما ثم قَبّله على جبينه وظل مصرًا على شرطه أن يُعلمه، وهنا سأله أورخان عن سر ذلك.

فتبسم الشيخ ضاحكًا من اندفاع الشباب قائلًا:

- سوف تدرك قيمة كل شيءٍ في أوانه، والآن إن كنت تريد نور فعليك أن تتبعني.

امتثل الأمير له في هدوءٍ ولم يكد إدريس يصدق عينيه عندما رأي الشيخ قد عاد به، فكانت فرحة إدريس عارمة و إن بدا شيئًا من الغيرة عليه لأن أورخان استمع لنصح الشيخ ولم يعانده مثلما يفعل معه، لكنها تبددت لما علم بأمر خطبته لنور.

مرت بضعة أشهر تعلم الكثير فيها عن علوم الحركة والكيمياء والأقرباذين والفلك وصار قادرًا على إعداد مساحيق البنج والبارود والأدوية الشافية من الحروق والجروح وغيرها من الأمور، كما تعلم الكثير من أمور الفلك وعلوم الحركة، إلى أن حلت اللحظة الحاسمة وطلب الإذن بالرحيل تاركًا خلفه نور حزينة غاضبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

ازدان ثغر السويس وكأنه في عرسٍ ما واصطف التجار أمام فخرالدين لتسجيل اسمائهم بعدما تعارك الجميع من أجل الحصول على بضاعة السيد المحترم الذي أتي بالنفائس بأسعارٍ لم يقدر أحد على منافسته فيها، فتم تخصيص حصص لكل تاجر على حسب أقدميته في المهنَة وحجم تجارته، وسرعان ما طارت أخبار كهذه إلى القاهرة بأنباء المراكب التي غزت ميناء السويس قادمة من الهند وكذلك كان الحال في ميناء الثغر([42]) بعدما أرسل فخرالدين أخيه إلى هناك.

انطلق صوت بهاء مثل جرس الإنذار وأخذ يوبخ زميليه لأنهما رفضا تصديق نظريته من البداية حين أكد لهما أن السر يكمن في المخطوطة، بعدما استطاع أن يقوم ببعض التحريات حول الضحية الذي زار مدينة القصير عدة مراتٍ بل قام بشراء أحد المنازل القديمة هناك، وهنا لمعت عينا زكريا وقال له:

- أنت تقصد أن وراء الحكاية آثار؟

همهم مؤمن واعتدل قائلا:

- لا أظن ذلك، علامات التعذيب الواضحة على جسد القتيل شديدة الوحشية، هذا ليس شخصًا يستخلص معلومة، وإنما هو موتور وينتقم من ضحيته!

كانت هذه الكلمة كفيلة لإشعال ذهن زكريا وبدأ يعبث في قائمة الأسماء الموجودة على الهاتف والمكالمات الأخيرة لعله يجد خيطًا ما يوصله، هنا عاد بهاء ليقول:

- ليس هذا فقط، بل القتيل اشترى مكانًا آخر في ثغر دمياط!

هنا تيقن زكريا من أنه يبحث في الموضع الصحيح، فالقتيل كان يبحث عن شيءٍ ما وكأنه يتتبع الأماكن التى كانت فيها تجارة داوود أغلو التاجر الثري وبطل الأحداث، وقد شاع عنه قبل سابق أنه متورطٌ في قضية بيع آثار، لكن ما الذي كان يخطط له هذه المرة ويبحث عنه، وتذكر أن له صديق وشريك ولعله إذا بدأ به يكن أول خيط يوصله، لكن بهاء لم يمهله فعاد للقراءة بصوتٍ مرتفع:

- كانت القاهرة تموج ببكواتها وجندها العثمانلية وتُجارها وبُسطائها، الكل في انتظار الوافد الغريب الذي سبقته سيرته وإمعانًا في الأمر اختار إدريس عربة فخمة تجرها الخيول المطهمة ويتبعها العبيد الأشداء، حتى ظنه والي القاهرة أنه مبعوثٌ من

إسلامبول.

في خلال بضع أيام صارت دار السيد داوود أوغلو هي قبلة القُصاد كما كان الحال في تلمسان وعضد، القصة أن أحد قادة الجند الانكشارية في تلمسان تعرف على السيد داوود أوغلو وقصد داره العامرة وحكى عن كرمه الغامر.

ظن الأمير بأنه صار قاب قوسين أو أدنى من حصاد رقاب أعدائه فقد صار من أصدقائه الوالي وكل الكبراء لذا فهو الآن فوق مواضع الشك، وها قد انتهى من تعمير الدار الجديدة التي اختارها خارج

أسوار القاهرة بخلاف الدار التي يعرفها أغلب الناس، اتخذ من خرائب أحد القصور القديمة دارًا وقام بتعميرها لأنها تقع خارج أسوار القاهرة بعيدًا عن أعينها الراصدة وضجتها وزحامها، لكن أطلت عليه مشكلة أخرى لم يحسب لها حسابًا!

فهو إلى الآن لم يقدر على الوصول إلى أي واحدٌ من الخونة أو المُخلصين وما زال إدريس يتقصى الأخبار ويريد أيضًا مكافأة القاضي "أصيل الطويل" على معروفه بعدما تولى تكفين السلطان، وظلت هذه هي الحال عدة أشهر يبحثون عنه بلا جدوى إلى أن هُدي الأمير إلى طريقة فبعث إدريس يسأل عنه في الأزهر، ويا ليته ما فكر فيها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

دخل اللواء كمال جعفر على حين غُرة ليفاجأ بثلاثتهم يجرون جلسة قراءة للمخطوطة، وأصيب ثلاثتهم بالوجوم وتجمدوا وكأن على رؤوسهم الطير ثم حاول مؤمن إنقاذ الموقف قدر المُستطاع، لكن اللواء كمال جعفر انفجر في وجهه لأنه كان ينتظر أية نتائج ليرفعها في تقريره للوزير، وهم الآن في جلسة سمرٍ لقراءة مخطوطة عمرها مئات السنين، لكن زكريا تدخل في هذه اللحظة قائلا:

- لا تقلق يا فندم، تم حصر الشكوك في عدة أشخاص وسنبدأ بهم وأولهم الثري "توفيق عبدالعزيز".

فرفع كمال حاجبيه بدهشة وأعاد الاسم:

- توفيق عبدالعزيز! تقصد توفيق بك عبد العزيز رجل الأعمال وعضو مجلس الشعب!

انتفض اللواء كمال جعفر من مكانه بعصبية شديدة وأشاح به ونظر في عينيّ زكريا ليتأكد من صدق كلامه لأن الشخصية المشار إليها تجمعها صداقة ومصالح بعدة وزراء، ولها اتصالاتها، ثم قال له:

- زكريا، المسألة صارت جدية ولا تحتمل أي مجال للخطأ.

نظر زكريا له بثقةٍ شديدة وردد العبارة المشهورة:

- تمام يا فندم.

ينصرف كمال جعفر وهو يحرك يديه في الهواء غير مُصدقٍ للأمر رغم أن توفيق تحوم حوله الكثير من الشبهات، إلا أنه يستبعد قيامه بذلك بنفسه.

بعد خروج اللواء كمال جعفر من الغرفة انتابت بهاء حالة هيستريا من الضحك، أثنى فيها على ذكاء زكريا وسرعة بديهته لكن زكريا نظر إليه بثقةٍ شديدة ولمعت عيناه وفهم مؤمن معنى تلك النظرة، وعلى الفور خرج مسرعًا إلى مكتبه أما زكريا فترك بهاء في حيرته القاتلة فهو إلى الآن لم يقدر أن يتوصل إلى استنتاج منطقي واحد يدفعهما لاتهام توفيق عبدالعزيز وحده دون بقية معارف الضحية أو أقربائه فأشاح بيديه في تململٍ وعاد مرة أخرى للقراءة، فالقضية إن عاجلًا أو آجلًا سوف تُعرض عليه كل ملابساتها، لكنه الآن يقتله الشوق والفضول لمعرفة المزيد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم يثر فضول الشيخ الطاعن لذا لم يهتم بالسؤال عن هوية ضيفه الذى لا يعرفه أو أسبابه للبحث عن رجال انقطع ذكرهم منذ زمنٍ بل استقبله بكل ترحابٍ وهم بأن يقص عليه طرفًا من أخبارهم، فإذا بصيحاتٍ وطرقات خارج بابِ داره وأصوات مستغيثة تهتف باسمه فقطعت كلامه!

تردد خادمه قليلًا فزفر القاضي بنفاذ صبرٍ مستحثًا إياه ليتحرك وما كاد يفعلها حتى امتلأت ساحة الدار بحشدٍ كبير من الخلق فنزل ليستفهمَ عن الأمر، فإذا بالعسكر أحاطوا بفلاحٍ مسكين لم يدفع الإتاوة والعامة تريد تخليصه من بطشهم واستنجدوا بالقاضي.

تعجب الأمير في نفسه من أمر مُضيفه ذلك الذى لقيه بكل ترحابٍ ثم انصرف عنه ليتوسط لفلاح رث الثياب وجمعٌ من أوباش القاهرة، ظلت تلك الأفكار تترا في رأسه يحاول أن يفهم السر في تصرفات القاضي إلى أن وجد نفسه أمام دار القاضي، وتردد قليلًا قبل الدخول ثم شجع نفسه لأنها كانت المرة الأولى التي يشهد فيها مجلس القضاء فرأى صديقه القاضي "بن عبدالعليم" يتوسط المكان تبدو عليه الهيبة والوقار.

لكن ما جري بعد ذلك أصابه بالصدمة، ففي البدء أخذ عسكر الدرك يتكلمون في صوتٍ واحد لكن القاضي نهرهم وأمرهم أن يوكلوا أحدهم بالحديث، فأخذ أقصرهم يشكو للقاضي وأطال في شكواه وعندها تدخل "شاكر" قائد الشرطة، فلم يجرؤ القاضي على مناقشته وقضى فورًا بالجلد والحبس شهرين على ذلك الفلاح دون أن يكمل سماع بقية الشهود أو حتى يستمع لذلك المسكين، فقام القاضي "أصيل" ونظر باحتقار لتلميذه ابن عبدالعليم ثم وجه كلامه إلى قائد الشرطة:

- فلتقضِ بالحق، أهذا الهزيل يقدر على ضرب أربعة من جنودك؟!

لم يهتم شاكر بالرد لكنه لم يقدر على النظر نحو القاضى أصيل وماجت دار القضاء بأصوات العامة المستنكرة، ويتنحنح ابن عبدالعليم مستشعرًا الحرج ليحاول استدراك الأمر قائلًا للقاضي أصيل:

- يا سيدى لقد قضيت بما أمامي من أقوال الشهود.

اتجهت العيون للقاضي أصيل لكنه جذب أطراف ثيابه تاركًا المجلس، فهذا أقصى ما يقدر على فعله، أما الفلاح المسكين راح يبكي في تذلل لاستجداء القاضي حتى يرجع عن حكم الحبس ويكتفي بجلده لكنه أبى، فلم آيس منه سب القاضي والعسكر ثم دفع أحدهم وانقض على القاضي وجذبه من لحيته حتى كادت تتخلع.

هبت العسكر مسرعة لتخلص القاضي من بين يديه فإذا بالخُرج القماش المعلق بكتفه ينقطع ويسقط منه الخيار فينشغل العسكر بجمعه، أما الفلاح المسكين انشغل بأمرٍ آخر لاحظه شاكر الذي مجرد أن قام من مكانه عاد للجند انضباطهم ثم نظر إلى ذلك الفلاح نظرة جعلته يرتعد ثم سأله:

- ما هذا أيها الفلاح؟ أرني ما بيديك.

- الفلاح: هي ألعابٌ من الخشب صنعتها لأطفالي الذين ماتت أمهم من زمنٍ قريب.

يهمهم شاكر ويسأله:

- هذا أسدٌ وزراف، وما هذا؟

يبتسم الفلاح في تخابث ثم يقول:

- إنه حمارٌ يا مولاي أعز الله مقامك، فتضحك العامة في سخريةٍ.

فيبتسم شاكر في برود ثم يقول له:

- أتريد أن ترجع إلى أولادك أيها الرجل؟

يرتجف الفلاح من نظرات شاكر الباردة ويهز رأسه كعلامة الموافقة، فينظر شاكر إليه ثم يقول له:

- إذن فأنت حمار، انزل على أربعٍ ونهق.

يحمر وجه الفلاح غضبا وتحتقن عينيه، فإذا بشاكر ينهره بقوة:

- نهق يا حمار، وإلا علقتك على باب زويلة جزاء فعلتك النكراء بسيدك القاضي.

يرتجف الفلاح لكن ما بقي منه يأبى الرضوخ، واجتهد العامة في إقناعه حتى ينجو خوفًا على حياته، ولما أبى لم يجدوا سوى ضربه لحمله على الطاعة فأخذ الفلاح ينهق والعامة تبكي وتنشج، أما القاضي أصيل فانسحب وهو يتميز غيظًا من عجزه بعدما مسح دمعة تحدرت منه خفية خشي أن تلمحها عينا الزائر الغريب الذى فوجئ به يقف أمامه في جرأةٍ ويسأله مرة أخرى، فأجابه بغضبٍ شديد:

- سبحان الله الودود، إن من تطلبهم ماتوا وشبع منهم الدود ([43])

يحملق الأمير فيه كمن لم يستوعب الأمر بعد، وينصرف القاضي مستغفرًا ومحوقلًا وهو يهدر مُقسمًا باعتزال القاهرة وأهلها ليسكن بالريف بعيدًا عمّن يعرفوه تاركًا خلفه السائل الغريب للحسرةِ والغضب ينهشان قلبه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

الغضب

(1)

تأكد الشك في قلب زكريا بعدما علم بأن توفيق عبدالعزيز تخلص من ملكية الأماكن التي كان يقوم فيها بالتنقيب عن الآثار، وصار يقينا راسخًا لديه بأن توفيق له عيونه داخل الإدارة، وحاول أن يطلق لخياله العنان لتخمين الشخص المتورط لكن رنين الهاتف ينساب في فراغ الغرفة ويقطع عليه تركيزه ويرفع السماعة في تراخٍ ثم ينتفض بعدها من مكانه!

تنسال من فمه أقذع عبارات السب ويهدر متوعدًا الجميع بالفصل من الخدمة بعدما تدمرت كل الأدلة الخاصة بالقضية وخاصةً هاتف الضحية نتيجة تسرب مياه أغرق المكان، وما زاده حنقًا أن مؤمن تركه وحده لأنه اضطر للسفر للخارج لأخيه، كانت حالة الغضب التي انتابته تشبه ما مر به الأمير بعدما فوجئ بأن كل جهده ذهب أدراج الريح ولم يبق له سوى السراب!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قد كان ما كابده الأمير لم يكن بالهين فسقط على أثره طريح الفراش يُصارع الحُمى ويهذي، ولما بدأ يتعافى فوجئ بنور تطببه للمرة الثانية!

عقدت الدهشة لسانه وظنها سراب كالذي طارده ولم يتأكد من أنها حقيقة إلا لما سمع صوت أبيها فكاد يطير من الفرحة، ثم ظل بعدها ساهمًا وكأنه لم يفرح لعودة نور وأبيها إلى مصر واحتار الجميع في أمره، حتى استخلصت نور منه الخبر فقص عليها منامه الذى أقلقه عن زيارة أبيه السلطان له في كل ليلة يأتيه مُدبرًا موليًا إياه ظهره فيحاول أن يسترضيه فيأبى، إلى أن التفت إليه وربت على كتفه فقام على أثرها من رقدته، وفسروا الأمر له بأنه من أثر الحمى لكنه ظل منشغلًا وبقي على تلك الحال إلى أن جاءه أحد التجار البسطاء الذين يشملهم بعطفه فظنه يطلب تأجيل السداد وكان أحيانًا يطلب ذلك، لكنه فوجئ به يجمع المال من أهل الخير لأبناء الفلاح المسكين من بعد ما شُردوا فأحس بالخجل يملأ نفسه وطلب منه أن يصحبه إليهم وهنالك رأى ما هاله، جموعٌ من الخلق تعيش بجوار الأسوار الخارجية للقاهرة العامرة يتغذون من مخلفات المدينة ويعيشون فيما يشبه الأعشاش.

أمر أورخان التاجر الشهم بإرجاع المال لأصحابه وأنه متكفلٌ بهؤلاء المساكين وغيرهم ممن يسكنون بهذا المكان شريطة بقاء الأمر سرًا بينهما، وعاد إلى داره ولم يدر أن إدريس كان يتابعه عن كثب ليطمئن عليه ونام ليلتها فأتاه أباه السلطان كعادته منذ صرعته الحمى لكنه كان هذه المرة مبتسمًا مُستقبلًا ومنحه سيفًا وراية.

قام أورخان من نومته وهو يشعر وكأن ما رآه حقيقة ولم يقصص على أحدٍ رؤياه وذهب إلى وكالته، وأثناء جلوسه سمع المنادى يذيع بأنه تم زيادة الضرائب ورفع الإتاوة وعلى الحاضر أن يُعلم الغائب وحديث الأمس يعيد نفسه، والعسكر يجمعون الإتاوة بالعسف وبالقهر، لكنه لم يكتف هذه المرة بالسكوت فنهره الجندي ثم لما عرفه تلطف معه بالكلام وقَبِل أن يترك الفلاح المسكين مقابل رشوة بلغت ثلاثة أنصاف من الفضة، وعاد أورخان إلى داره يثقله الحزن والغضب وأخبر إدريس بالتجهز للسفر للسلطان لإعلامه بما يجرى في مصر، فبادره إدريس:

- وهل ستلقى السلطان بصفتك الأمير أورخان الذى فقد بصره، أم بصفة السيد داوود أوغلو التاجر ذائع الصيت؟ فومضت عيناه بوقدة غاضبة لكنه لم ينبس بكلمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

سرى في الليل وقرر أن يضرب ضربته بعدما علم بموضع سمرهم بالمقطم كل ليلة بأحد أوكار الحشيش يخرجون منه وقد لعب السُكْر برؤوسهم، فقطع الطريق عليهم فسأله أقصرهم ويدعي "علقم"، وهو الذى ادعى زورًا أمام القاضي أن الفلاح بائع الخيار ضربهم:

- ماذا تريد يا هذا؟

فكان الرد ضربةً بالسوط أوقعته أرضًا وشلت المفاجأة عقل زميليه فألقى عليهم شبكة لصيد الضواري فأخذوا يتخبطون يحاولون تخليص أنفسهم والسوط يلسع أجسادهم فلا يقدرون على اتقاء ضرباته، حتى غابوا عن الوعى ولم يفيقوا إلا عند أحد أبواب القاهرة والفلاحون القادمون من الأرياف القريبة ينتظرون الدخول ببضاعتهم، ولما رأوهم عرفوهم برغم ما هم فيه من كربٍ وسمعوا نحيبهم الممتزج باستغاثاتهم:

- لن نشهد زورًا مرةً أخرى، أدركونا يا خَلق، والسوط ينزل على أجسادهم.

اهتزت القاهرة لما جرى وكثر اللغط واستدعى شيخ البلد شاكر للتشاور وأمره بإغلاق أبواب القاهرة مبكرًا ومنع الناس من فتح أبواب المقاهي والحانات وحظر الحركة أملًا منه في قطع ألسنة العامة، لكنه دون أن يدري زاد النار اشتعالًا، فأمر عسكره باقتحام البيوت لجمع كل من يُشتبه فيهم فبدأ بأرباب السوابق في أعمال الشطارة والعياقة والزعر والمنسر وأتبع ذلك خلقًا كثيرة حُبسوا كيدا وزورًا بفضل بصاصيه الذين يجوسون القاهرة.

أفلح تدبيره وانشغل الناس بأمر المحبوسين ظلمًا وزورًا بل حنقوا على هذا الفارس الملثم لما جرى لهم، وأخذت المشايخ تسعى للإفراج عن المحبوسين عند شيخ البلد ولم يبق سوى تُعساء الحظ الذين لم يجدوا من يشفع لهم ومنهم فرج!

عاد إدريس والكآبة تعلو وجهه ولما سأله أورخان عن السر نظرا لبعضهما نظرة ذات مغزى ثم قال:

- لقد حبسوا فرج لأنه كان فيما سبق أحد الشطار وكان يسرق من المحتكرين ليوزع على المعوزين من أهل حيه، لما ضج الكبراء من أعماله رفعوا أمره إلى "خليل" نائب شاكر الذي استطاع القبض عليه وحُبس لفترة ثم خرج وقد تاب وعمل بوكالتك وها هو سوف يُعدم بقره ميدان([44]) دون ذنبٍ أو جريرة وبرفقته ذلك الشيخ الشهم "منصور الفرماوي" الذى رفض شاكر إطلاق سراحه.

قالها ثم سكت فنظر إليه أورخان بحزنٍ ثم ابتدره:

- أحتاج إليك يا إدريس.

فتح إدريس ذراعيه في حنان وتلقاه في أحضانه ثم طفقا يخططان لما قررا فعله، ثم سأل أورخان فجأة إدريس:

- أين هما مسجونين الآن؟

- في معادي الخبيري([45]) ، بعيدًا.

- إذن فهو ينوي إعدامهم هناك؟!

- إدريس: كيف هذا؟! وقد جرى العرف على تنفيذ الأحكام في قره ميدان.

ران صمتٌ على المكان وراح يفكر أورخان بعمقٍ، فخرج صوته كأنه آتٍ من مكانٍ بعيد:

- إذن لماذا حبسهم بعيدًا في معادي الخبيري طالما جرى العرف على تنفيذ الأحكام بقره ميدان؟!

غمغم إدريس غير فاهم لما يرمي إليه أورخان، ثم فجأة وكأنما أصابه مسٌ بعدما فهم الذي يدور بذهن أورخان فطفق يشرح بحماسٍ شديد له:

- إن حبسهم في مكانٍ بعيد يعني أن على الفارس الملثم الذى هز هيبة شاكر أن يظهر وينقذهم فيسقط كصيدٍ سهل في مجالٍ فسيح ومفتوح يسهل فيه إعداد فخٌ يُنصب له، أو أن يكون الفارس المُلثم حصيفًا فيجبن فتنتهي سيرته

ويتم التخلص منه سريعًا مثله مثل جميع الرافضين للظلم بضربةٍ واحدة

تُخرس ألسنة الجميع، وفي كل الأحوال لن يقدر كل أهل القاهرة على قطع كل هذه المسافة إلى معادي الخبيرى.

فغر الأمير فاه ثم قال:

- هذا تدبير لا يخطر على بال الشيطان، لكن كيف ننقذهم؟

سكت الأمير هنية ثم قال:

- هذا ما أحاول العمل عليه يا إدريس، وقد نفعني ما تعلمته على يد الشيخ أبوالفتوح ولكن...

- لكن ماذا أيها الأمير، هل تريد التراجع؟

- كلا لكنني أفكر في أن الوقت ضيق، وأحتاج لكميات كبيرة من ملح البارود والبنج وغيره من مواد ولا ائتمن أحدًا على هذا الأمر.

لم يكد ينتهى أورخان من كلامه إلا وسمع صوته:

- وأنا لها يا أمير تابعك ومعاونك.

احمرت وجنتي الأمير خجلًا وقَبّل رأس الشيخ أبوالفتوح وطلب منه العفو فهو في منزلة أبيه، وفي أثناء هذا سمعوا المنادي يعلن عن إعدام الزعر والمنسر الأشقياء في سجن معادي الخبيرى بعد يومين من الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(3)

ابتلت اللحى الكبيرة وارتخت الشوارب العظيمة وتلاشت الهيبة أمام عظمة الموت والخوف منه، ومكث فرج على يقين بأنه على موعد من الفرج إن لم يكن من أجله فلهذا الشيخ صاحب المرؤة الذى دومًا كان يُنجد المظلومين وظل يُنقل بصره بين هذه الجموع التي جاءت لتشهد الحكم عليه في يومٍ غائم يلسعهم فيه ريح باردة والأتربة، فاجتمع عليهم الجوع والبرد مع خوفهم.

وقف شاكر بجوار الجابي وقال له:

- لن يأتي أبدًا فقد مُلئ المكان بالحرس والبصاصين.

ابتسم الجابي بثقة وقال له:

- سوف يأتي وسترى.

دُقت الطبول إيذانًا بالتنفيذ وشرع الجلاد يشحذ سيفه وفأسه ليصيح فجأة أحد الدراويش فيعلوا صوت إنشاده فيصدح معه بقية الدراويش وتنشغل الأعين بهم، ثم اهتزت الأرض فجأة على صوت دوي رهيب يزلزلهم ثم إذا بالسماء تشتعل شهبًا والنار تحيط بالمكان وفجأة ظهر الفارس الملثم على حصانه وأخذ يعدو متجهًا إلى شاكر فاختطفه بخفةٍ من بين رجاله ووضعه على سرج حصانه وكأنه طفلٌ صغير، وظل عسكره يقفون في ذهول وقد خارت قواهم ولم يقدروا على الحركة.

امتلأت القاهرة بعد هذا الحادث شهبًا وحرسًا وانعقد مجلس القلعة لبحث الأمر العاجل، وأخذ الوالي وشيخ البلد وأمراء المماليك يتبادلون الاتهامات حول الفاعل الذى تجرأ على اختطاف قائد الشرطة من بينهم، الذى أرعب الزعر والمنسر فكيف لهيبته أن تسقط هكذا!

أما في بيت الأمير أورخان فقد ملأت الفرحة أرجائه وخاصةً بعدما تم إعلان زواجه من نور، وللمرة الأولى تعلق الزينات ويدخل أخيرًا الفرح حياته بعدما أمضى الكثير من سنين حياته بحثًا عن الانتقام.

ظلت نور تضحك لحسن تدبير أورخان وتتعجب مما يحكيه لها إدريس وكيف استطاع الأمير أن يرسل بعض خلصائه إلى الساحة لينثروا ملح البارود وكميات من البنج الممزوج بالأفيون، الذى بمجرد أن اشتعل البارود أذاب البنج مع الأفيون فخرجت رائحته وأصابت الجميع بالخدر والذهول والنار شلت حركتهم وما كان ذلك ليحدث لولا معاونة أبيها له، وإدريس الذي تنكر في زي درويش رحال وأشغل الجميع ثم أشعل الفتائل فأحدث حالة الهرج والمرج خاصةً لما انطلقت ملاعيب الصين([46]) فملأت السماء شهبًا وأرعبت الجميع، لكن الأمير رد عليها، بأن هذا من فضل الله وكرمه عليهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

هذا حال الدنيا

فلا عز دائم

ولا نعيم مقيم

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر

الزائر الغريب

(1)

أشعل الفتيل ثم أطلق السهم فخرج صوت الهسيس حثيثًا وسرعان ما غاب الحراس عن الوعي في نومةٍ طويلة ليتسلل الزائر الغريب بهدوءٍ ويشعل فتيلًا آخر، لكنه هذه المرة كانت خلطة من البنج مع الأفيون النقي تصنع شيئًا من الهلوسة الخفيفة، ثم أيقظ النائم في سريره بنخسةٍ من سيفه.

فانتفض القاضي ثم أخذ يدعك عينيه بقوةٍ وظنه في البدء أنه منام لكن نخسة أخرى كانت كفيلة بتأكيد الأمر وأن الفارس الملثم جاء لزيارته هو الآخر، فارتجف بشدة وعرض المال أملًا في النجاة بعدما لمح الجوال في يده الأخرى فظنه سيقطع رأسه ويحملها في الجوال، فإذا بزائره يُلقي إليه بالجوال فيجده مملوءًا بالخيار!

نظر إليه القاضي مستفهمًا، فأمره بأكل ما فيه جميعًا، فحاول إثنائه فمنحه نخسة أخرى جعلته يُقبل على أكله دون مناقشة وكان كلما كف عن الأكل تلقى نخسة أشد من التي سبقتها وهو يصرخ طلبًا للرحمة أو أملًا في أن يسمعه أحدٌ من حراسه فابتدره زائره:

- الرحمة؟ أين هي حتى تطلبها، وأين كانت لما حبست الفلاح المسكين بائع الخيار وشردت أبنائه.

محت كلمات زائره أثر الأفيون الذي ملأ رأسه واعتدل القاضي في جلسته وتيقن من مصيره المحتوم وتذكر شاكر المختطف وها هو الآن سوف يواجه نفس مصيره، وظلت الأفكار تلعب برأسه ليجد زائره قد تلاشى ولولا الجوال لظنه منامٌ مُفزعًا!

تخلف القاضي عن مجلسه وخاف أن يشكو ما حدث له لشيخ البلد فيسخر المحتسب منه وقد كان يكيده دومًا، فأسر الأمر في قلبه لكنه أرسل يطلب من خليل نائب شاكر أن يزيد الحراسة على بيته لأنه ما عاد يأمن بعد ما جرى لشاكر وبات القاضي ليلته مطمئنًا ظنًا منه أن زائره الغريب لن يقدر على المجيء مرةً أخرى، ولما سكن الليل ونامت العيون إلا أعينِ المظلومين جاءه نفس الزائر يحمل جوالًا أكبر من سابقه وعليه أن يأكل أو تُقطع رقبته، فأكل حتى أغشي عليه من الألم واختفى زائره،

تكرر الأمر لعدة ليالٍ والقاضي متخلف عن مجلسه بحجة المرض حتى خرج يومًا من داره وشق صوت صياحه سكون الليل وهو يطلب العفو من بائع الخيار، واستيقظ أهل الحي ومن جاورهم على صياحه وظنوا أن به مسٌ من الجن!

للمرة الثانية يجتمع مجلس القلعة لبحث الأمر ويتبادلون الاتهامات، أما في السجن تحول بائع الخيار إلى أحد الأولياء وراح يتبرك به من بالسجن، وأطلقوا عليه الشيخ المظلوم، ويحتار أهل القاهرة ما بين مُصدق ومُكذب لما يجري والبعض قالوا هذا من فعل الجن ويستعيذون بالله، ومنهم آخرون أكدوا بأن الجن لا يظهر بالنهار لكن العقلاء أرجعوا هذا لفعال أحد الشطار، فيصيح فيهم البهلول حامل المبخرة بصوت منغوم:

- م- مدد، مدد، مدد يا سيدي، إنها كرامات سيدي جمال الدين بن شيحة.

يُؤَمِن الناس على كلام البهلول فما جرى بالقاهرة لا يقدر عليه أحد من العامة فلربما هي كرامة لأحد الأولياء، فيسمعهم منصور فيزجر البهلول وينهاهم:

- يا قوم اتقوا الله، فلا كرامة لميتٍ راح عند ربه، ولا كرامة لكم طالما عن الظلم سكتم.

فينغر الناس رؤوسهم في أسى ثم ينشدوه بالله أن يسكت خشية البصاصين المنتشرين في كل مكانٍ، فينصرف منصور مغاضبًا ويظل مجلس القلعة منعقد يبحث أمر الفارس الملثم الذى أقض مضاجعهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

يصعد خليل إلى القلعة من أجل لقاء شيخ البلد وهو يعلم ما سوف يقوله سلفًا، ستة أيام مرت على اختفاء شاكر وخليل يقف عاجزًا، في قرارة نفسه كان يكرهه لظلمه وتعطشه للدماء ولا يقدر على مخالفته فهو استاذه وولي نعمته، لكنه بينه وبين نفسه يعلم أن شيئًا من الخوف كان يعتريه لكنه ما زال يدين له بالولاء لأنه هو اختاره نائبًا له وكذلك هذا واجبه أن يحفظ النظام، ولكن أين يجد شاكر؟ ولم يكن عنه ببعيدٍ كان في ظُلمة جُب أسفل قصر المرايا ذاق فيه مرارة الحبس واجتمع عليه الخوف والجوع، ولما أُطلق سراحه تُرك لمصيره في تيه المرايا الذى نادرًا ما نجا منه أحد.

كان تيه المرايا فيما سبق قصرًا لأحد المماليك بناه لأبنائه ليلهون فيه ويلعبون لكن المرايا أصابتهم بالجنون، ومات الأمير الذى بناه بالحسرة وظل مهجورًا بعدما أشيع أن الجن سكنت في مراياه فخافت العامة أن تقرب منه.

ظل شاكر يبحث عن مخرج حتى أضناه البحث بين المرايا وأصابه مس من جنون وأُغشي عليه فحمله الأمير ووضعه على حمارٍ أبيض وتركه أمام أحد أبواب القاهرة، ولما رآه الجند عرفوه فأرادوا تكتم الأمر لولا أحد السقائينَ رأى ما حدث.

أقضت تلك الحادثة مضاجع كل الكبراء بما فيهم الوالي نفسه الذى خاف أن يُرسل إلى السلطان يُخبره بما يحدث خشية أن يُعزل، لكن أخبار القاهرة طارت إلى السلطان رغما عنه، لذا قرر فرض حصار على القاهرة لعدة أيام فلا يخرج منها أحدٌ أو يدخل دون أن يحمل إذنًا، وشيخ البلد الذى فرح في البدء بما جرى لأنه يكره الوالي تأكد من جدية الأمر فجمع أمرائه لتنظيم الدوريات الطوافة التي رغم ذلك لم تُفلح في القضاء على الزعر والمنسر بعدما علموا بما جرى لشاكر، وبقي القاضى أصيل الذى كان جمع أمره فيما سبق على ترك القاهرة قرر ألا يغادر قبل أمرًا ينتويه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

طرق الباب طرقتين خفيفتين وانتظر الرد فخرج إليه أحد الخدم يسأله عن حاجته، فطلب منه لقاء صاحب الدار، فأدخله الخادم إلى إحدى الغرف ثم ذهب لإخبار صاحب الدار الذى عقدت الدهشة لسانه لما رأى زائره والتى ازدادت أكثر حين فتح صندوقًا خشبيًا كان يحمله فيه سيف السلطان طومان باي ورايته!

- بلهفةٍ يسأله الأمير:

- بالله عليك، كيف عرفت بالأمر؟

همهم القاضى أصيل ثم ابتسم في مرارةٍ قائلًا:

- هذا حال الدنيا، فلا عز دائم ولا نعيم مقيم، ثم أطلعه على سره وعن رؤياه للسلطان المغدور.

فذرفت عينا أورخان وقص عليه خبره ثم سأله:

- إن كنت يا مولاي القاضي تملك تلك الكرامات فلما لا تخبر أهل مصر بها لعل قلوبهم تتوحد خلفك ويردوا الظالم عن ظلمه؟

نظر القاضى أصيل إليه بحزنٍ ثم رد عليه:

- الإيمان يا ولدى موكولٌ بالقلب لا بالرؤية، ولو كان موكولًا بالرؤية لآمن بنو إسرائيل، أما أهل مصر لو آمنوا بقوتهم لما سكنوا للظلم لحظة، لكنهم كما ترى خائرون كقطيع من الخراف الضالة رغم أن هذا القطيع نفسه لما آمن بقوته يومٌ ما رد جحافل التتار، ودحر الصليبين وأشياعهم.

ظل أورخان يستمع وينصت في تأملٍ لكلام القاضي ولم يقطع حديثهم إلا الهرج والمرج الدائر خارج البيت، وتبين أنه أحد اللصوص تطارده الشرطة والعامة وشعر أورخان بشيءٍ من الحزن لأن شاكر على ظلمه كان قادرًا على كف أيدى المنسر.

فابتسم له القاضى وأخبره بما لا يعرفه وأن المنسر هم أحد أدوات شاكر ليُبقي شيخ البلد عليه في منصبه!

استطاع "حسن بن وافي" التخلص من مطارديه بصعوبة حتى وصل لمغارة المعلم أبو سماحة وهو في حال مزرية، فسأله أبو سماحة:

- ما الأمر يا حسن؟

التقط حسن أنفاسه بصعوبة وشكا له صعوبة الأمور بعد انتشار رجال خليل قائد الشرطة الجديد الذين يقفون لهم بالمرصاد، ثم قال له:

- لا أدري ما هذا النحس، كل هؤلاء المماليك يسرقون أقوات الناس فلا أحدٌ يفتح فمه، أما إذا قام لصٌ صغير مثلي بسرقة دجاجة أو أوزه ثارت الناس وأخذوا يصيحون أمسك حرامي، ألا يوجد حلًا يا

معلم أبو سماحة يجنبنا غضب الأهالي؟

ضحك الرجال المتحلقين حول أبو سماحة في المغارة لكن نظراته الثاقبة المتجهمة كانت كافية لإخراسهم ثم تدريجيًا ران صمت على المكان وأخذ أبو سماحة يفكر وهو ينفث دخان نارجيلته ثم سأله:

- وماذا عن المماليك يا حسن؟

- حسن: نرشوهم يا معلم سعفان.

قهقه أبو سماحة لما تذكر اسمه القديم سعفان ودروس الأزهر والمشايخ، وحلم أبيه الذى خذله منذ أكثر من عشرين عامًا لما كان ابنًا وحيدًا لأبٍ هرِم أراد أن يُجنبه مصيره فأرسله للأزهر ليكن سندًا له ويعيش في قريته قريرًا مهيبًا لمّا للمشايخ من هيبة وتوقير عند الحكام، لكنه خيب ظنه وراح يلهو ولم يكن همه الدراسة، إلى أن عاد في يوم ورأى رجال الجابي يسحبون جاموستهم الوحيدة وأبوه مقيدًا في إحدى الأشجار والسوط يقطع في جسده الناحل وفاءً للجباية، فأمسك بيد الجلاد فنال النصيب الأوفى من الضرب ومات أبيه.

يومها كره سعفان اسمه وكل ما يذكره بقريته ولما عاد إلى القاهرة تلقفه أصحاب السوء، وعمل مع المنسر حتى صار كبيرًا لهم ويُحسب له حسابًا وتلقب بأبي سماحة.

نفث دخان نارجيلته مرة أخرى والذكريات تمر بخاطره ودروس الأزهر وحياته، ثم فاجئ حسن بسؤاله:

- ما الفرق بين المماليك والعربان أمثالكم، يا حسن؟

- حك حسن بن وافي رأسه لأنه لم يفهم مغزى السؤال وتذكر حياته السابقة لما كان يعيش بين أبناء قبيلته والإغارات التي كانوا يقومون بها إلى أن طُرد ولم يجد سوى أبو سماحة يقبل به ويعده خليلًا،ا فإذا بسعفان يبتدره قبل أن يجيب:

- المماليك أيضًا لصوص لا فرق بينهم وبين العربان، يَغيرون على الخلق الآمنين فينهبوهم ولا أحد يقدر على ردهم أو محاسبتهم بحجة الجبايات والضرائب، أليس كذلك؟

فهز حسن بن وافي وكل الرجال رؤوسهم، وأكد على كلامه:

- لكنهم فى حقيقة الأمر نهابين.

فإذا بسعفان يقول له:

- الآن فهمت، فما الذى يجرى لو أننا سرقنا من السارقين لنعيد الحق لأصحابه الحقيقيين.

فغر الرجال أفواههم أمام منطق أبو سماحة، ثم عاد يقول لهم:

- إنما السارق من السارق كالوراث من مال أبيه.

قهقه حسن بن وافي قائلًا:

- وهكذا نسرق ونحن مطمئنين ولسنا بحاجة لرشوة المماليك، وطابت للجميع الفكرة التي سرعان ما انتشرت كالنار في الهشيم بين أحياء القاهرة وما جاورها من الأرياف، فشجعت الكثير من الأوباش على الصعود إلى المقطم وكانوا خليطًا غريبًا من العاطلين والشحاذين وأهل السوق، نجح أبو سماحة في أن يُكون منهم فرقة صغيرة منظمة استطاع تدريبها للإغارة على قصور الأمراء ويخلف الخراب، لكن الشرارة الحقيقة بدأت عندما نزل إلى أطراف القاهرة لتوزيع الغنائم على المعوزين والفقراء فأحدث الكثير من الهرج والمرج وأغلقت بوابات القاهرة على أثره لعدة أيام وتعطلت الأسواق.

أدرك خليل بفطنته خطورة ما يواجهه وأنه لا طاقة لرجاله به أو حتى رجال الوجاقات مجتمعين، فهى فتنة عظيمة وهؤلاء لم يعودوا مجرد عصابة من الزعر أو المنسر بإمكانه القبض عليهم وقطع أيديهم لذا فعليه أن يلجأ إلى علماء الأزهر، أما شيخ البلد والوالي فاكتفيا بإلقاء مسئولية ما يحدث على الفارس الملثم الذى حرض العامة على التمرد ونشروا رجالهم بين الناس لإذاعة ذلك.

جلس أورخان برفقة القاضي أصيل والشيخ أبوالفتوح وإدريس، لتباحث المسألة بعدما خرج الأمر عن السيطرة وتم إلصاق التهمة بالأمير وما عاد أحد يأمن على نفسه بسبب عصابة أبو سماحة التي ما عادت تُفرق بين غني وفقير، وقد حاول خليل إخراسهم فأطلق عليهم المدفعية فردوا بدفع الحجارة على الأحياء القريبة منَ جبل المقطم، ثم تحصنوا بإحدى المغارات وشجع هذا العربان للانضمام إليهم بفضل حسن بن وافي، وظل الجميع يتناقشون وأورخان شارد الذهن يتابع بهدوءٍ عمل الكلاف الأعرج صاحب الحدبة الخفيفة في ظهره، وانتبه إلى شروده الشيخ أبوالفتوح الذى سأله:

- يبدو أن الأمير ليس معنا!

تحرج الأمير من كلام الشيخ أبوالفتوح واعتدل في جلسته ثم قال:

- بالعكس يا سيدي، أنا معكم ولكنني أفكر في طريقة للقضاء على تلك الفتنة.

امتقع وجه إدريس لما سمع كلمات الأمير، واندفع قائلًا:

- ألم تكتفِ بعد؟!

ربت الأمير بِحُبٍ على كتف إدريس ثم قال:

- لن يقدر خليل وحده على القضاء على أبو سماحة وإن ظلت الحال هكذا فلن يجد الناس ما يأكلون، والأمراء من ورائه متخاذلون كما ترى، وأنا علي أن أدافع عن سمعة الفارس الملثم وخاصةً لأنني من تسبب في القضاء على سطوة شاكر.

هز إدريس رأسه بفهم لأنه علم تمامًا ما يدور بعقل الأمير وتأكد بأن المحذور منه قد وقع وما عاد باليد حيلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع عشر

سُلطان

(1)

علا صوت خطباء الجمعة بالزجر والوعيد من إتباعِ المارقين الذين ينهبون الناس بحجة أنهم يسرقون السارقين وينهبون الناهبين، لكن كلامهم لم يلقَ صدى في قلوب العامة فهذا السارق الناهب يوزع عليهم شيئًا مما يسلبه، أما الأمراء المماليك ينهبون خيرات البلاد بحجة جمع الضرائب وينفقونها على ملذاتهم لكن أحدًا من العامة لم يجرؤ على المناقشة خوفًا من البصاصين، وما زاد الطين بلة أن أبو سماحة صار يناطح خليلًا فيوزع رجاله المال على العامة أمام المساجد في وضح النهار ويضم إليه المزيد من الأتباع.

احتاج أورخان ليتحول من السيد داوود أوغلو إلى سلطان الكلاف أسبوعًا كاملًا مع إدريس ليتقن العرجة واللثغة في كلامه والحدبة الخفيفة وطريقة كلام أبناء البلد من العامة حتى أن زوجته نفسها لم تعرفه، وقد حاول إقناعه سابقًا بأن يلبس ملابس الدراويش الرحالة مثلما كان يفعل ويتسلل في أثناء أي هرجٍ أو مرج بين رجال أبي سماحة، لكن الأمير وجد أن أبي سماحة لا يحتاج إلى درويش أو لص وقدٍ يقتله لكنه يعوزه كلاف يعتنى بجياده، كان كل ما يحتاجه هو الخطة المناسبة حتى يتسلل بين رجاله إلى أن جاءته الفرصة تسعى، وسمع إدريس همسًا يدور في السوق عن سرقة السيد داوود أوغلو فتنكر أورخان وانتظرهم حتى يأتون لسرقة خيله وكان تقريبًا أخلى البيت تمامًا فلم يجدوا سوى الخيل فاضطروا لسرقتها واصطحاب كلافها الذى يبدو عليه البلاهة لاستجوابه، لكن في الطريق حدث أمْر غريب فقد بدأت الخيل تسقط وأصابها الإعياء، وظنوا أنهم مُدْرَكون لو أبقوا على الخيل المسروقة وقد طمع بعضهم واعتلى صهوتها لولا سرعة تدخل "سلطان" الذى تصرف بكل مهارة وأخرج من خرجه عشبًا خاصة أطعمه للجياد فبدأت تستعيد عافيتها، ففرح المنسر بمهارته وقرروا عرضه على المعلم سماحة.

في مغارة المنسر وقف سلطان بحدبته ولثغة لسانه والبلاهة المرتسمة على وجهه أمام أبي سماحة الذي لم يكن لصًا عاديًا كما كان يظن الأمير بل وجده ذكيًا متعلمًا يفهم كيف يكسب قلوب الرجال، ليس كريه المنظر مُنتن كعادة المنسر، أخذ المعلم

سماحة يتفرس في الوافد الجديد وأحواله ثم داعبه قائلا:

- إن كنت أنت السلطان فمن الجالس على العرش.

فضحك الرجال جميعًا عدا سلطان الذى نظر لهم ببلاهة وتدلى شدقيه في غباءٍ، فلما وجده على تلك الحال أمر رجاله بأن يكرموه وينزلوه في المغارة المجاورة لعله ينفعهم كما أشاروا عليه، ليفاجا أورخان بأن مغارة أتباعه لها باب سميك يغلق على من فيها ولا يسمح لهم بالخروج ليلًا فعلم أن أبو سماحة يحافظ على حياة رجاله، أما البقية فهم رهائن لوقت اللزوم يدفع بهم في وجه أي تجريدة تصعد للجبل للنجاة بحياته مع رجاله.

في اليوم التالي بدأ أبو سماحة يحقق مع سلطان الكلاف ويسأله كيف علم سيده بأنهم سوف يهاجمون بيته، فشرح له أنه جاءه الخبر وهو في بيته قبل يومين من زائرٍ ما أبلغه بهذا، فنقل كل نفائسه إلى قصره الآخر الذى يقع نحو الجنوب لكنه خاف أن ينقل الخيل أيضًا فيُعلم أنه هجر قصره وكان قد أبلغ

خليل قائد الشرطة الجديد بهذا الترتيب، فوقدت عينا أبو سماحة بلمعة غضب وفهم أورخان منها أن خطته بدأت تؤتي ثمارها والشك داخل قلب أبي سماحة، فقرب إليه سلطان لأنه مفيد ولا يوجد منه خطر لما فيه من بلاهة بادية عليه، فسمح له بالنزول باستمرار لشراء ما يلزمه لرعاية الخيل، في البدء لم يتخلَ عن حذره فأرسل في عقبه من يتقصى أخباره ويتابعه وشعر أورخان بذلك فتعمد تجاهله، أما أبو سماحة زاد حرصه وتشككه بعد حديث سلطان إليه عن الواشي الذي بين رجاله لكنه لم يصارح أحدًا بشكوكه التى تأكدت أكثر بعد صعود خليل قائد الشرطة في تجريدة للمقطم للقبض عليهم لكنه فشل في الظفر بهم، فصار سلطان مع الوقت موضع ثقته ولم يعد يرسل من يذهب في أثره يتقصى أمره مثل سابق، بل سمح له بالنزول إلى القاهرة إلى أن عاد إليه يومًا يخبره بصوتٍ خافت، بأنه علم من ابن عم له يعمل عند خليل بأنه سوف يجرد تجريدة أخرى اليوم على الجبل مرةً أخرى، واقترح عليه أن يخفيه في مكان ما يشك أن سيده يحمل فيه نفائسه.

سال لعاب أبو سماحة لسيرة الذهب لكن حذر الثعالب لم يفارقه، فسأله وكيف عرفت بذلك، فابتسم سلطان وأخرج من جرابه بعضا من التبر العالق في سرج الحصان وعلم من الإنهاك الباد على الحصان رغم أن سيده لم يسر به لمسافة طويلة لكن يبدو أنه كان يحمل ثقلًا أنهك الحصان، ففرح أبو سماحة بما سمعه ووجدها فرصته السانحة ليضرب ضربته ولعله يترك بر المحروسة، فقد تعب من الكر والفر والمطاردة ويريد أن يحيا ما تبقى من حياته متمتعًا بها.

جمع أبو سماحة عصابته وذهبوا جميعًا خلف سلطان الذى قادهم إلى بيت السيد داوود أوغلو الثاني الواقع خارج أسوار القاهرة، ثم فتح لهم بابًا لأحد السراديب السرية التى لم تكن تفضي لشيءٍ سوى قصر المرايا، فنزلوا جميعهم خلفه ولم يفكر أحدًا أنه فخ نُصب لهم، وبمجرد أن نزلوا وخطت أقدامهم بضع خطواتٍ في السرداب إذا بالأرض تنشق فيسقطون جميعًا إلا أبو سماحة الذى تمكن من القفز بعيدًا وفهم أنهم سقطوا في فخٍ لا خلاص منه فاستل سيفه، فإذا بالأخير يُخرج قطعة البوص من بين طيات ملابسه ينفخ فيها نفخةً واحدة فتصيبه بالشلل، ثم كالعادة يجد حراس بوابات القاهرة أبو سماحة المنسر الشهير وعصابته مقيدين بالأحبال وقد أُلقي عليهم شباك صيد الضوارى وأصابهم الإنهاك، ولا أحد يعلم من الذى استطاع الإيقاع بهم لتضج منتديات أهل القاهرة مرةً أخرى بحديث دائب لا ينقطع عن فارس مُلثم وحده استطاع القضاء على عصابة منسر أرعبت القاهرة وعجزت قوات المماليك والعثمانيين بأجمعها أمام هجماتهم، حتى علماء الأزهر تداولوا مسألته ودار حوار ساخن بين منصور ورفقائه واحتاروا في حاله، فهو ليس بشاطرٍ أو عايق يخطف من الناس بحجة أن يوزع على الفقير ولا ثائر يرفع راية العصيان في وجه السلطانً، فإذا بمنصور يبتسم ويقول لهم:

- إنه سيف العدل.

وكأن الناس كانت بحاجة لاسم أو وصف تطلقه عليه ليتحول إلى بطل، فلما قالها منصور ما كانت إلا بضعة أيام إلا وسرى الاسم كالعدوى وبدأوا في نسج الأقاصيص والحكايات الوهمية التى تمجده وصنعوا منها سيرة، ومنصور يسير بينهم مستنكرًا ومتعجبًا من حالهم التى لا تتغير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

ظل يمشى في أسواق القاهرة يتفقد الأحوال ويتحسس الأخبار تارة يرتدى خُرقًا مرقعة بالية ووجهه معفر كالدراويش الرُحل وأخرى يشحذ من العامة ثم بعدها يرتدي ملابس التجار المغاربة ويتحدث بلكنتهم حتى استقر على أن يعلق جراب سقاء ويدور في شوارع القاهرة، واستطاع أن يطّوف بأغلب بيوت القاهرة فاشتد به العجب مما سمعه من أخبار الفارس الملثم الذى ملأت سيرته الآفاق وأطلقوا عليه لقب "سيف العدل"، وكان قد وصلته أخبار فتنة عصابة المنسر التي قالت بأنها تسرق من المماليك، وقيل أنه ورائها ليسمع بعدها أنه أوقع بهم وسلمهم للشرطة!

ظل يملأ مسقاته ويفرغها لكنه في حقيقة الأمر يملأ أذنيه بالأخبار ويفحصها، وقد أصابته الحيرة من أمور فريدة لم يسبق له أن سمعها من قبل وقصة الفلاح المظلوم وانتقامه الذى أنزله بالظالمين، ثم تدخل للقضاء على فتنة المنسر وحده وأنقذ أهل القاهرة بعدما عجز خليل بك قائد الشرطة الجديد ورجال الوجاقات عن ذلك!

اختار "طرغود باشا" كبير بصاصي السلطنة الكُمون في الظل إلى أن يفهم حقيقة الأمور ووجدها فرصة سانحة للسير في شوارع القاهرة بزحامها وضجيج باعتها، ومجددًا تعود إلى قلبه الذكريات وكأنها بُعثت حية من جديد ليمشي ويتسمع عن أخبار القضاء على المفسدين، لكن طرغود باشا يرمق الأمر بشيءٍ من الريبة، لكن ما أثار انتباهه أكثر ظهور تاجر عظيم شديد الثراء يُدعى داوود أوغلو امتدت تجارته من الغرب إلى الشرق، ويُقال أنه آتٍ من المغرب واستقر بمصر وقد جرت تلك الحوادث بعد ظهوره في مصر بزمنٍ قريب، وقد ادعى هذا الشخص أنه قريب للسلطان وهو يعيش في بحبوحة من العيش وله دارٌ واسعة تشبه قصور المماليك تقع خارج أسوار القاهرة على غير عادة التجار، وشيخ البلد لا يجرؤ على مضايقته بل يرحب به دومًا ويترك له الحرية في أن يتاجر كما يشاء، وقد حاول التجار أن يقنعوه بتولي منصب شيخ التجار أكثر من مرة فرفض ذلك واعتذر لهم بكثرة مشاغله!

بدأ "أحمد باشا" يشك في ظهوره والفارس المثلم وشيخ البلد الذى يعلم بكرهه للوالي الحالي ويريد الإطاحة به بأي شكلٍ لأنه يتطلع لحكم مصر لكنه طالما يدفع المقرر لخزانة السلطنة سوف يُبقى عليه في مكانه، لكن شكوكه تراجعت حين علم بأن هذا التاجر كفيف البصر.

إدريس لم يكن تابعًا عاديًا، بل عاش في البلاط السلطاني بمصر ثم كنف السلاطين العثمانيين، وقد أدرك بحدسه أن الحوادث التي جرت بمصر لابد وأن تثير ريبة السلطان وتجر معها بصاصي السلطنة، لكنه لم يتصور يومًا إرسال طرغود باشا كبير البصاصين لتقصى الحقائق بنفسه فقد توقع من هم أقل شأنًا منه ويطمحون لشغل منصبٍ رفيع لكن هذا الرجل لا مثيل له في زمانه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(3)

تسرب إلى الصحافة خبر تلف الأدلة الجنائية في القضية، وأدرك مؤمن لدى عودته من الخارج أنهم دخلوا قفير النحل بأرجلهم، لذا لم تم سؤاله في الإعلام عن دوافع القتل فأرجح ذلك إلى أنها قد تكون قضية تتعلق بالشرف وكان لهذا الأمر صداه الذى تردد في كثير من الأوساط، لكنه لم يتوقع أن تحاول هي الاتصال به!

أثار تصريح مؤمن الكثير من القيل والقال، لكن أن تتصل به امرأة متنفذة مثلها وتطلب لقائه وقد استعدت بكل أسلحتها الأنثوية وهو لم يكن مستعدًا لهذا الشرك، بعد عودته من الخارج على إثر مكالمة من بهاء وكيل النيابة أخطره فيها بتلف الأدلة الجنائية وتسرب الخبر إلى الصحافة، فعاد على الفور ليجد الإعلام يطارده فأخبرهم بأنهم يمتلكون نسخة أخرى من سجلات هاتف القتيل كاملة ما زالت محفوظة بأمانٍ وبالإمكان الرجوع إليها وهذا ما جعلها تستبق الأمور وتتصل بمؤمن لتخبره الحقيقة كاملة عن علاقتها بالقتيل، وسقط مؤمن أسيرًا لسحرها واستطاعت أن تنال تعاطفه معها وطلبت منها ألا يفضحها لأنها تظن أن القتيل كان يحتفظ لها ببعض المحادثات الصوتية التي قد تفضح أمرها وأنها تنوي التخلص من توفيق في أى لحظة والاعتراف بذلك، فالحياة لم تعد تعنيها.

عاد مؤمن إلى البيت ولم يخبر أحدًا عن لقائه بها بالمرة وأخذ يفكر فيما قد سمعه ربما كان سعيدًا أن حدسه كان صادقًا وتأكد من هذا بلقائه مع زوجة توفيق، لكن ماذا عليه أن يفعل الآن كي يرتاح ضميره؟!

عاد مرة أخرى إلى نفق المشاة في حي المعادي قافلًا إلى بيته لتتزاحم الأفكار مرةً أخرى في رأسه ويحرك يديه بعصبيةٍ وكأنه يتحدث إلى شخصٍ ما، ويفكر في زكريا لو كان مكانه ما الذى قد يفعله، وقد أصابته الحيرة ثم يخشى أن يخبره فيلومه إنه بحاجة لمن يرشده، فوجد أقدامه ساقته إلى بيت البروفيسور عبد الحق.

تهلل كثيرًا البروفيسور عبدالحق لزيارة مؤمن واستقبله بحفاوته المعهودة، لذا لم يتردد مؤمن وقص عليه الخبر فإذا به يبتسم، فتوقف مؤمن عن الكلام، فبادره البروفيسور عبد الحق بالكلام:

- كان زكريا هنا بالأمس!

فنظر له مؤمن باستغرابٍ، فأكمل الآخر:

- وحكي لي نفس حكايتك!

فاتسعت حدقتي عينيه دهشةً، فابتسم له البروفيسور ابتسامة المعلم لتلميذه النجيب بعدما شرح له استنتاجه وأن كشف غموض القضية من الممكن أن يقضي على سمعة هذه المرأة، لذا فقد كانت ترغب في الاحتيال عليهما من أجل معرفة النسخة الإضافية المحفوظة من سجلات هاتف القتيل، وذلك بعدما تكون استطاعت بث الفتنة بين الصديقين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثامن عشر

الدهشة

(1)

علت الدهشة وجه مؤمن ثم أعقبتها لذة الفهم لمّا شرح له البروفيسور عبد الحق ما كان توفيق ضالعًا فيه وبالأخص صفقات بيع الآثار الإسلامية، وهذا أول الخيط الذى يجر خلفه الكثير من الفُساد والعديد من الأسماء اللامعة المعروفة في سماء المجتمع تستغل مناصبها لمصالح شخصية لكن توفيق يختلف كثيرًا عنهم، فقد ارتدى عباءة التقوى والورع بالإضافة إلى أنه بطل حربٍ سابق لذا يصعب المساس به، ويبدو أن الشكوك لما بدأت تحوم حوله بدأ من يحميهم أيضًا يتدخلون لحماية مصالحهم ومن ضمنهم زوجته، وتأكد من ذلك بزيارة توفيق للمبنى الذى يعمل به وهو يسير موزعًا التحيات والابتسامات بين الجميع.

أما دهشة إدريس فكانت أبلغ من مؤمن عقب خروجه من مسجد السلطان حسن لأنها تحولت إلى ذعرٍ عندما وقف يشرب من أحد السقائين وأعطاه بضعة دريهمات وأخذ منه الطاسة ليشرب، والسقاءً ينادي بصوته الريان:

- اشرب يا عطشان، بلل ظمأك، ويصلصل بالصاجات النحاسية في سعادة ولم يكد ينتبه له إلا وتلجلج واهتزت الطاسة في يده، فسقط الماء فانتبه له السقاء قائلا:

- لا عليك يا عمي، خذ أخرى مكانها.

فابتسم له إدريس على غضاضة وما كاد ينهي شربته إلا وتبخر من أمامه، ليعود سريعًا إلى المنزل ليُحذر أورخان الذي ما كاد أن يراه إلا وانفجر في وجهه:

- قد جررتنا جميعا للمتاعب بسبب رعونتك التي لا تنتهي.

فسكت أورخان ولم يرد على توبيخ إدريس له، لكن إدريس لم يكتفِ:

- ما ذنب نور زوجتك الآن، والوليد الصغير القادم وأبيها؟

كان أورخان على يقين بأن إدريس يخاف عليه مثل ابنه ولا يقصد توبيخه، ولاحظ إدريس حجم التغير في شخصية الأمير والنضج فهو لم يشح بوجهه عنه مثل كل مرة، واصغى له بكل أدبٍ حتى توقف حديثه وشعر بأنه اندفع في كلامه، فنظر إليه أورخان ثم ابتدره بنبرةٍ حازمة:

- ألا تذكر كلماتك لي في محنتي، إن الحق ليس بمحجوب وإنما أنت المحجوب عن النظر إليه.

- إدريس: بلى أذكر، لكن ما تواجهه هذه المرة أكبر منا جميعًا.

- أورخان: يا إدريس، إن الناس قد آمنت برسالة العدل الذى نفذته، فما ذنب هؤلاء المساكين.

يصمت إدريس أمام منطق الأمير مُشفقًا عليه من مصيره المنتظر بعدما أرسل خليل بك مناديًا يُعلم بجائزة مالية مُجزية لمن يُدلي بأية معلومات أو أوصاف عن سيف العدل.

مر المنادي وسمعه خليل وجلس مُطرقًا برأسه يشعر بينه وبين نفسه بالخزي من تصرفه الذى أطاع فيه شيطانه و"الجابي رزمك الناشف" ولجأ للأصفر الرنان الذي يغوى الرؤوس ويلوي الأعناق،

وهو يعلم تمام العلم في قرارة نفسه أن سيف العدل مُنصف في أفعاله، لكن نجاحه فيما فشل فيه هو ورجاله ومعهم الوجاقات العثمانية في حفظ النظام والقضاء على عصابة المنسر كان كبيرًا على نفسه وأصابه بالإحباط، وتكفلت سخرية رزمك والوالي بملئ نفسه بالحقد والغيرة ثم التهديد بالإقصاء من منصبه بعدما تسرب خبر سفر طرغود باشا إلى مصر سرًا، كان يحاول بهذا أن يبرر لنفسه فعلته، لكنه ظل بينه وبين نفسه يلومها على ذلك.

سمع طرغود باشا إعلان المُنادي فأدرك بفطنته أن الأوضاع خرجت عن السيطرة والوالي وشيخ البلد يُلقيان بآخر سهمٍ في جعبتهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

كان للقاضي أصيل أكبر تأثير على أورخان، لذا ذهب إليه إدريس وطلب منه أن يقنعه بالذهاب إلى قرية قريبة من هرمِ سقارة إلى أن تهدأ الأمور قليلًا، فقد مر أكثر من أسبوع على ظهور طرغود باشا في القاهرة ولم يُعلَن بعد عن وصوله، فعلم إدريس أنه كمن غير بعيد يتحسس الأمور ويراقب عن كثبٍ، أما إدريس فكان له شأنٌ آخر، فقد اشترى حمارًا وتنكر واندس بين الحمّارين لعله يجد ضالته في السوق فيضعه تحت ثاقب بصره.

مكث أورخان في سقارة يتابع أخبار القاهرة وأحست نور بما في قلبه من حزنٍ وعلمت أنه لن يرتاح حتى يتمم الخطة التي برأسه، وأشفقت عليه من ثقل العبء الذي اختار أن يحمله وحده، فعلمت أن النُّصح لن ينفع معه فما لبثت تعتمد معه اللين والإقناع بالحجج وتخبره بأن الشجاعة تحتاج لشيءٍ من المكر والدهاء فالماء على رغم ضعفه يُفتت الصخر، فنزل على رأيها مُرغمًا أمام منطقها وظل مختفيًا عن الأنظار حتى تهدأ الأخطار من حوله، ويتبين نية هذا الطرغود الداهية الأريب.

مر شهرٌ كامل استطاع خلاله إدريس أن يرصد بعضًا من الأماكن التى يتردد عليها طرغود باشا، ولاحظ إدريس أنه تراجع عن رغبته في الإفصاح عن وجوده، وأنه ما زال يبحث في الأمر إلى أن اختفى عن ناظري إدريس فظنه عاد من حيث أتي.

هدأت الأحوال نوعًا ما واستقرت البلاد، حتى كاد الناس أن ينسوا سيف العدل وسيرته وعاد الشاعر ليحكي سيرة الهلالية وعنترة والظاهر بيبرس، لكن أحدٌ لم يكن يعلم بأن الطرغود الماكر تملص من الجميع وذهب إلى إحدى القرى القريبة من القاهرة ليبتعد قليلًا عن القاهرة ظنًا منه أنه تخلص من جميع مراقبيه، هذا إن تمكن أحدٌ من مراقبته.

فوجئ طرغود باشا بحجرٍ يدخل غرفته ويحطم نافذتها، وظن في البداية أن صبية الحارة يلعبون لكنه لم يسمع صياحًا أو حركةً فانتبهت حواسه فقام فورًا يتفقد النافذة المكسورة بحذرٍ شديد، فإذا بحجرٍ يحوى رسالة ففضها فوجدها من سيف العدل "إذا أردت أن ترى العدل فاسأل عن الفلاح بائع الخيار"

على قدر اقتضاب الرسالة لكنها حوت الكثير من المعاني، جعلت الباشا يفكر كثيرًا ويغضب أكثر لأنه لم يتوقع أن أحدهم استطاع أن يرصده ويعرف مكانه، ثم اختار أن يُطبق العدالة الناجزة بدلًا من القانون.

أمام هدوء القاهرة وخلوها من الأحداث حفز ذلك شيخ البلد ليعود إلى سيرته وأمرائه المماليك وعلى رأسهم الجابى رزمك الناشف الذى وجد أن موعد دفع الأموال المقررة للخزانة السلطانية قد اقترب وهو لا يقدر على أخذ فِلس واحد من الأمراء وكبراء التُجار، فقرر أن يزيد الضرائب ولجأ إلى التُجار فادعى جميعهم الفقر، فوجد أن أسلم سبيل اللجوء إلى المحتسب ليُساعده في مهمته وطفقا يخططان للاستيلاء على أموال التجار بالمصادرة تارة وبالضرائب أخرى، فلجأ كبار المقام منهم إلى شيخ البلد أما صغارهم فدفعوا مُجبرين عدا واحدٍ لم يسأل عنه أحدٌ ولما جاء ذكره سال لعاب رزمك على ثرواته، إنه السيد داوود أوغلو الناجي الوحيد من ضربات أبو سماحة.

زاد جشع رزمك فاضطر التجار للاجتماع وقرروا إغلاق السوق ومنع البيع والشراء، وتعطيل كافة المصالح واستنجدوا بعلماء الأزهر لدرء الظلم عنهم، لكن شيخ البلد أدرك بفطنته ما سوف يفعلوه لذا أمر بحبس بعضًا منهم والبعض حدد إقامته في بيته لا يخرج منه ولا حتى لأداء الصلوات حتى تهدأ الأمور، ولحسن الحظ أن الجميع يظنون أن السيد داوود أوغلو في ضيعته بقرية سقارة بعيدًا عن الاضطرابات.

تأكد طرغود باشا من صدق حديث سيف العدل لكنه أيضًا خاف من أفعاله التى تهدد أمن واستقرار السلطنة، لذا فقد وجد أن أفضل الحلول هو القبض عليه حيًا حتى يحقق معه بنفسه، وقرر أن يعلن عن وجوده وأرسل في طلب شيخ البلد والوالي إليه فاهتزت القلعة من وقع الخبر.

قرر أورخان أن يوجه ضربته بادئ الأمر إلى "المحتسب" فهو اليد التي تعاون الجابي على الظلم ويبرر له، لكنه في طريقه إلى مهمته فوجئ ببعض المماليك الصغار يغيرون على مخازن جرجس جاره الذى وقف يولول والمماليك يحملون أجولة الحبوب والدقيق، وتَحير أورخان قليلًا، هل يذهب إلى هدفه أم يُنجد جاره ثم حسم أمره وبدأ هسيس البنج المشتعل يملأ المكان فأصاب أعصاب المماليك بشيءٍ من الخدر فأشعل آخر وألقاه، لكنه لم يؤد المطلوب كما توقع فاضطر أن يخرج من مكمنه يكر عليهم لكنهم بمجرد أن رأوه تبلبوا وألقوا ما في أيديهم وهربوا، وكان خليل قد سمع بأن بعض المماليك يثيرون المتاعب فخرج لضبط الأمور فإذا به يرى بعضًا منهم يهرب واصطدم به أحدهم فسبه خليل بغضبٍ فالتفت إليه المملوك الهارب:

- الظَلمة أحق بالسب سيدي، وليس أنا.

حدق خليل قليلًا في وجه المملوك فوجده مُلثما فقال له:

- لما لا تكشف وجهك أيها المملوك؟

فسأله أورخان:

- خليل بك، هل بائع الخيار كان ظالمًا أم مظلومًا.

اتسعت حدقتا عيني خليل من الغضب وانتفض كالملدوغ متحسسًا موضع غدارته فلم يجدها، فقهقه أورخان:

- أتبحث عن تلك يا خليل بك؟

احمر وجه خليل غضبًا واستل سيفه فأخرج أورخان سيفه وأخذ يداوره حتى استطاع أن يوقع السيف من يده، ووقف خليل أمامه مذهولًا من الحركة التي قام بها فجرده من سلاحه وصار أعزلًا، ثم طلب منه أن يقتله لكن أورخان عاد ليسأله:

- هل بائع الخيار كان ظالمًا أم مظلومًا؟

غضب خليل من سؤاله ورد:

- ألم تحفظ من الكلام سوى ذلك، وتظن نفسك قادرًا على تنفيذ العدل، أنا هنا القانون والقانون هو العدل.

عاد أورخان لقهقهته الساخرة وقال له:

- لما غفل عدلكم خليل بك ومال ميزانه كان لابد من أحدٍ ليعيد الأمور إلى نصابها.

فأطرق خليل برأسه مُتفكرًا في كلامه، وما كاد يرفع رأسه مرةً أخرى إلا وجده تبخر كعادته وقد ترك خلفه السيف والغدارة ([47]).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

هب "جرجس" من شروق الشمس يُجهز نفسه وهو يُسرع ويستحث الخطو نحو الكنيسة، كنيسة القديس "مارجرجس" وترك صبيانه يُصلحون الفوضى، حتى أن زوجته اندهشت من لهفته للذهاب إلى القُداس، وفي الطريق تردد كثيرًا هل يسأل "الأنبا مكاريوس" عما شاهده وسمعه بالأمس أم يسكت، وظل مترددًا إلى أن انتهى القداس واستنتج الأنبا سر تواجد جرجس لكنه انتظر أن يبتدره بالكلام فاقترب منه جرجس وقبل يده بأدبٍ جم، ثم ابتدره:

- أبانا!... ثم صمت.

فإذا بالأنباء يسأله:

- خيرٌ يا جرجس، قد سمعت القاهرة كلها بما جرى في مخازنك وكيف أنجاك الرب من شرور المماليك.

غمغم جرجس وأشاح بيده في الهواء ثم قال:

- ما رأيك يا أبانا...

- تكلم يا بنى لا تخفِ شيئًا فقد استنتجت من جلوسك أن هناك أمرٌ ورائك.

قالها الأنبا مكاريوس ثم عبث بلحيته، فتشجع جرجس:

- سيف العدل يا أبانا، سيف العدل.

كررها ثم سكت، وعاد الأنبا للعبث بلحيته الكثة واطرق برأسه كمن تحير بماذا يجيب سائله، ثم رفع وجهه متطلعًا في عينيه:

- كلها دروب الرب يا ولدي.

فسكت جرجس لحظة ثم حك رأسه:

- لم أفهم يا أبانا.

- نحن أدركنا درب الرب بالمحبة وهو أدرك دربه بما رآه مناسبًا له، وفي النهاية كلها دروب الرب، مجيبًا على سؤاله.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(3)

لم يكن مؤمن بالأغر الذى يسهل خداعه، لذا فقد توقع ما قد يحدث بعدما تعلم من محنته السابقة وصار أكثر حذرًا مما قبل لذا فقد أخفى في جعبته ما لم يتوقعه أحد!

هاتف الضحية الذى ظل محفوظًا في غرفة مكتبه بعيدًا عن بقية الأدلة، لكنه لم يخبر أحدًا بذلك وأنه تمكن من الوصول إلى كل الملفات المحفوظة بداخله والأهم سجلاته المحفوظة على نظام سُحب البيانات التى كانت السبب في تغير مسار التحقيقات، وأصبح توفيق عبدالعزيز المتهم الأول في القضية بفضلها وجَرّت الكثيرين معه، لذا حاول توفيق أن يضغط عليهم لكنه لم يُفلح وتم عرضه على النيابة ثم سريعًا تم تقديمه للمحاكمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

أبو الريش

(1)

"رزمك الناشف" قالها زكريا بغيظٍ شديد، فابتسم بهاء بمرارةٍ وقال:

- فعلًا، توفيق عبدالعزيز بيفكرني بيه لأنه دايمًا فوق القانون.

كان ثلاثتهم جالسين يشعرون بالحنق، فتوفيق عبدالعزيز الذى سريعًا ذهب للمحاكمة وأُثيرت ضجة كبيرة حوله سرعان ما خرج وحُفظت القضايا التي كانت ضده، بل وبدأ في مضايقتهم وتسبب في البداية بنقل مؤمن مرة أخرى، ثم نُقل كلًا من بهاء وزكريا إلى المرور بأحد الأقاليم بعدما هددهم بأسَرِهم إن حاولوا المساس به مرة أخرى مثله مثل رزمك الناشف، كان يعرف كيف يتحايل على الأمور ويتلاعب بالجميع وكأن رزمك في كل عصر، من موظف بسيط بالجمارك إلى إمبراطورية مالية تتحكم في السلع التموينية، ومن مملوك لا ذِكر له إلى المتصرف في شئون الماليات المصرية.

جمع رزمك بين بطش المماليك ومكر أبناء البلد وحلاوة لسانهم، فتمكن من الصعود سريعًا ولمع نجمه وكون شبكة من العلاقات مع كبار التجار تحفظ له مكانته، فهم يلاطفونه وينافقونه وهو مقابل عدم دفع كبرائهم للضرائب يتعهدوه بالهدايا وأيضًا يكف عنهم يد صاحبه المحتسب رغم ما يقومون من رفع أسعار الأقوات والأعلاف، ويظل يحسب حساب شاكر قائد الشرطة وأستاذه شيخ البلد الحاكم الحقيقي للقاهرة فكلاهما يعرف كيف بدأ، أما الوالي كان يعلم جيدًا أنه كما أتى إليهم بفَرمان، فسوف يُخلع بغيره ويظل شيخ البلد راسخ رسوخ الأهرام، حتى أطل عليهم سيف العدل ليقلب الموازين ويُخلي له الطريق من شاكر فتطاولت آماله، لكن شيخ البلد ظل يقف له بالمرصاد وجاء بخليل خلفًا لشاكر، كان شاكر على رغم ظلمه متعقلًا يُجيد استخدام عصاه في إدارة الأمور، يكبح ثورات طلبة الأزهر وأطماع الأمراء وكبار التجار ولا يتهاون مع رزمك إذا لزم ذلك رغم سابق صداقتهما.

ضاق رزمك ووسوس المحتسب في صدره بأنه لا يليق به إلا أن يصبح أميرًا للحج من أجل أن يجمع المحتسب إلى عمله الجباية فتمتلئ خزائنه بالمال، لذا قررا إحراج شيخ البلد ففرض الجابي المزيد من الضرائب والمحتسب بدأ في مصادرة بضائع التجار والتشديد عليهم بعدة حجج، فكانت هذه حُجة لكبير التجار بدر الدين الرويعي ليأمر برفع أسعار الأقوات مرة أخرى وعلى رأسها القمح والفول، لكن فجأة يَجِد جديد ويعلن طرغود باشا كبير البصاصين عن وجوده بالقاهرة ويطلب من الوالي شخصيًا فتح التحقيق في واقعة بائع الخيار فترتبك مخططات الجميع.

تنهد أورخان وشعر ببارقة من الأمل بعد توقف المُنادي الذى يدور ليل نهار يُعلن عن جائزة مالية لمن يُدلي بأية معلومات عنه وتغير النداء إلى منحه الأمان، أما طرغود باشا اعتكف في دار المحفوظات بالقلعة يراجع تقارير البصاصين عن العام الماضي ليستشف بثاقب بصره من هو صاحب الرسالة الغامضة، فقد احتاج وقتًا لتأمل الأمور، فهو كبير البصاصين وليس الكل يعرفه سمته وهيئته، فتأكد شكه بأن من قام بإلقاء الرسالة إليه هو شخص يعرفه ولا يصلح أن يكون هذا الشخص من العامة أو حتى من طلبة الأزهر، إنما هو أحد الأمراء المماليك البارزين يطمح للاستئثار بحكم مصر!

تمكن طرغود باشا بظهوره المفاجئ من مباغتة المماليك والوالي لصراعاتهم من أجل توفير المال المقرر سداده للخزانة السلطانية، ليحصل على المزيد من الوقت للتحقيق في أمر "سيف العدل" ونسي أنه بطلبه هذا قد أشعل النار وترك سُحب الخراب تجتمع في أفق القاهرة، بعدما ضج الخلق من شُح الأقوات وغلاء أسعارها.

اجتمع بعدها الديوان الكبير بحضور الوالي وأقروا عزل الجابي والمحتسب حتى تهدأ ثورة العامة لكن رزمك واسع الحيلة استطاع أن يراوغ وينجو برقبته وأرسل لشيخ البلد يحذره من مغبة فعلته إذا أقدم على ذلك، فسيُحرق الدفاتر الخاصة بالجباية وخراج الأراضي ولن يستطيع سداد المقرر للخزانة السلطانية، ولم يكتف بذلك بل بعث بمن يبث الخبر بين العامة بأن الخزانة فارغة والديوان الكبير يناقش فرض المزيد من الضرائب وسوف تصادر الأوقاف، فشاع الذعر بين التجار والعامة وعم الغضب طلبة الأزهر واستعدوا لحربٍ تدور بينهم وبين المماليك.

شعر شيخ البلد بحجم المأزق الذى وقع فيه ما بين سندان رزمك ومطرقة طرغود باشا لكن شيخ البلد الذى تربى على دِكة النخاس وذاق مرارة الذل تعلم كيف يسايس أموره، جمع الديوان الكبير في غياب الجابي والمحتسب وتم الاكتفاء بعزل المحتسب بحجة أنه المتسبب في البلبلة التى جرت في القاهرة، وأسندوا مهام عمله للجابي وتصالحوا وفهم رزمك أن العرين لا يتسع إلا لأسدٍ واحد واكتفي بالحفاظ على رقبته، لكن شيخ البلد لم يكتفِ وعاد لفرض المزيد من الضرائب فضج العامة وبدأ التذمر هذه المرة من أرياف الصعيد، وقتل الأهالي الملتزم لعنفه وقسوته، أما طلبة الأزهر عطلوه وتجمع العامة من أهل القاهرة والتفوا حولهم وصرخ منصور في العامة بالخروج لمحاصرة قصر شيخ البلد، فما كان من شيخ البلد إلا أن أمر بخروج تجريدة للصعيد لتأديب الفلاحين، ثم قاد مجموعة من رجاله برفقة الوجاقات العثمانية وحاصروا منطقة الأزهر وشتتوا الجمع المحتشد واكتفى بذلك، فهدأت الأمور وانكسرت نفوس العامة أمام القهر الذى أبكى الكبير قبل الصغير وظنوا أن سيف العدل قد تركهم في مواجهة طغيان المماليك، كان أورخان يتابع وهو مغلول اليد لا يقدر على الخروج، وكيف يترك إدريس صاحبه ورفيقه الذى رباه واعتنى بأمره وقد اشتد المرض عليه وظنوه المرض المفضي إلى الموت ولم يتعافَ منه إلا بعد فترةٍ طويلة فخرج منه وقد نحل عوده وصار كالطير الضعيف، وأورخان تاركًا تجارته وزوجته ليتابع حالته بحنان الابن، ونَسيت العامة أمر سيف العدل الذي لا يعلمون أين اختفى إلا شخصٌ واحد إنه "منصور" الذى ظل يؤمن به، وفي غُمرة هذا علم من مصادره بأن طرغود باشا سافر تاركًا القاهرة ولم يُعلم إلى أين كانت وجهته!

ملأت الراحة قلب أورخان بعد مغادرة طرغود باشا للقاهرة واستقرار صحة إدريس، لكنهم لم يكادوا يلتقطوا أنفاسهم إلا وقام رزمك بمصادرة بضائعه تأديبًا له لقيامه بدفع الإتاوات والجبايات عن الباعة الفقراء في السوق، وكل ذلك بدفع من "بدر الدين الرويعي" الذي كان يحقد عليه فاستغل ما حدث وزين لرزمك الأمر بحجة ردعه وتأديبه، ووجدها أورخان الفرصة التى جاءته تسعى لكنه قبل أن يقوم بذلك تشاور مع القاضى أصيل الذى أوصاه بالقضاء على رأس الأفعى، لكن أورخان ناقشه لما فيه من خطورة وشيخ البلد ليس مثل البقية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

(2)

كان من عادة شيخ البلد الذهاب للحمام أسبوعيًا رغم أن قصره يشتمل على حمام، لكنه كان يقابل هناك خواصه دون أن يلفت الأنظار، وقد علم أورخان هذه العادة عنه من جلسات السمر التى جمعتهم لذا فقد رتب له مفاجأة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في الحمام تعرف شيخ البلد إلى فتى يخدم بالحمام وأعجبه أسلوبه وطريقته وأقنعه أنه حجامٌ ماهر وتركه يهذب له لحيته فأعجبه عمله، وتكررت زيارات شيخ البلد للحمام، حتى أرسل في إحدى المرات للحمامي يطلب منه أن يرسل إليه عامله ليهذب له لحيته ويحلق له شعره.

بدأ الفتى بصب الماء على رأس شيخ البلد الصلعاء وصفف له لحيته وهذبها بكل مهارة، ثم عرض عليه مشروبًا منعشًا يصنعه بنفسه، فشرب منه وهو مرتاح مطمئن ثم راح في سباتٍ عميق أفاق منه والفتى يُنهي عمله ويُلبسه عمامته، وما كاد ينتهي ويُخرج المرآة له فأعجبته صورته، وما هي إلا لحظات وأتى خادم أسمر يطلب الإذن بالدخول على شيخ البلد وسلمه رسالة من الجابي رزمك الناشف يطلب منه الحضور لأمرٍ هام وعاجل، فقد وصلته أنباء عن سيف العدل.

في الطريق لبيت الجابي طارت عمامة شيخ البلد وانكشفت صلعته بعدما تعلقت في شص سنارة فاتضح أنها اكتست بريش الطيور وأبناء العامة من خلفه يجرون ويهتفون:

- يا أبو الريش إن شاء الله تعيش، يا أبو الريش إن شاء تعيش.

والكل يصخب بالضحك حتى مماليكه لم يملكوا أنفسهم من الضحك، ولم يكن يعلم من أين ظهر هؤلاء الملاعين الصغار وكأنهم جاءوا من العدم ويجرى شيخ البلد والصغار يصخبون من حوله ومماليكه عاجزين عن حمايته، فاعتزل الناس وقد كاد يموت من شدة القهر والحسرة.

اجتمع الديوان الكبير بعد مناشدات الوالي للأمراء المماليك وغاب عنهم شيخ البلد وجلسوا للتشاور في مسألة المارق الذى أقض مضاجعهم، فأخذ الأمراء يتعوذون منه ومن شر ألاعيبه وقسوة أفاعيله بعدما صارت العامة تدعو عليهم بالذل كما أذاقوا الناس المر ألوانا والقهر كئوسًا.

أثار رزمك في الاجتماع مسألة اختيار شيخًا جديدًا للبلد أملًا منه في أن يملأ فراغ سابقه، لكن التحاسد بين الأمراء بعضهم البعض حال دون ذلك وتفرق الجمع دون أن ينتهوا إلى شيءٍ، أقر السيد داوود أوغلو عين شيخ البلد وهو يقص عليه كل ما دار وجرى في اجتماعهم والذي علم به من أحد الأمراء!

استمر السيد داوود على عهده بالوفاء لصديقه شيخ البلد ولم ينسه في محنته وقد فرح كثيرًا شيخ البلد بأن صاحبه لم يتركه بعدما انكسرت هيبته وضاعت قيمته بين الأمراء وانقطاع الناس عنه، قالها شيخ البلد ثم بكى بحسرةٍ ومرارة فربت السيد داوود على كتفه بمحبةٍ ووعده بأنه لن يرتاح إلا بعد أن ينتقم له من الجابي، ولو كان يعلم أنه هو نفسه سيف العدل ما كان أفلته، عبرت تلك العبارة في رأسه وأيقظت عقله فمسح دمعه وأطلعه على سر قوة الجابي المتمثل في دفاتره التي يحصي فيها الجباية وخراج الأراضي وهى التي تثبت سرقاته.

استنام أورخان إلى أن أحدًا لن يشك فيه ونسي تحذيرات إدريس له من جدران القاهرة التى لا تنام ووقع المحظور، ورأى أحد المماليك السيد داوود أوغلو وكثرة تردده على قصر شيخ البلد فأيقظ الريبة في نفس رزمك وكانت الطريق قد خلت أمام رزمك ليصبح شيخًا للبلد، لكن ظلت الشائعة التى تتردد تُهدد رقبته فقد قيل أن سيف العدل هو أحد أعوانه!

استمرت تحريات أورخان حول موضع الدفاتر الخاصة بالجباية ومكانها إلى أن أسر إليه شيخ البلد بأن رزمك يستخدم شيفرة ما لتسجيل حساباتها بالاستعانة بأحد الكتبة البنادقة الذي علمه هذا الفن وقد

أجزل له رزمك العطاء، وصار يترك دفاتره في دار الحفظخانة دون أن يقلق خاطره أى شيء.

خطط كثيرًا أورخان ليضرب ضربته القاسية لرزمك الناشف، لكنه أراد قبلها التخلص من "بدر الدين الرويعي" غريمه الذي يكيد له ويتلاعب بأسعار السلع ويتسبب في تجويع الفقراء، ولم يكن يقدر على مساعدته في تلك المهمة سوى الشيخ أبوالفتوح، الذي منحه عقارًا عجيبًا إذا ما وضعه على أجولة القمح أو الفول تغير لون الحبوب وصارت كأنما أصابها عفن وتغيرت رائحتها، وترك سيف العدل كالعادة رسالة يُحذر فيها المُحتكرين ويخبرهم بفساد بضاعتهم وعلى رأسهم "بدر الدين" ولعلمه بطبيعة بدر الدين الذي قد يبيع الفول بتلك الحالة فهو لا يعنيه سوى الربح فقط فاهتم بأن يشيع الخبر سريعًا في السوق.

علم الجميع بأن بدر الدين وأصحابه قد فسدت الغلال التي في مخازنهم التي حرموا منها الناس وتسببوا في غلاء الأسعار فشمتت فيهم العامة، ثم حزنوا لأن ما حدث يعني المزيد من الغلاء، ثم بفضل إدريس الذي أوكل لفرج مساعده أن يختار بعضًا من صغار التجار ويذهبوا لشراء البضاعة الكاسدة من بدر الدين بحجة إطعامها للبهائم، وأعطاه المال اللازم لذلك ومنحه دكانًا ليبدأ، ففرح فرج بذلك ثم أوصاه بكتمان السر.

رحب بدر الدين بشدة بالتجار الذين جاءوا لحمل بضاعته الكاسدة أملًا في تعويض بعضًا من خسارته هو أصحابه وحتى تنتهي السمعة السيئة التي أحاطت بهم فقد قاطع الناس كافة وكالاتهم حتى إن كانت تبيع شيئًا غير الغلال، ولم يكن يعلم بأن بضاعته بمجرد تعريضها للشمس سيذهب أثر العقار العجيب عنها وترجع لطبيعتها، وفوجئ ببضاعته عند هؤلاء التجار تباع بسعرٍ معقول فكاد أن يُجن مما فعله فيه سيف العدل وكيف استولى على بضاعته بالحيلة، وباتت القاهرةً مرة أخرى تحكي وتتحاكى بقصة بدر الدين الرويعي ومكيدة سيف العدل.

ارتاح أورخان من تدابير بدر الدين ومكائده وبقي له أن يتفرغ لرزمك الناشف فقص على حمه الشيخ أبوالفتوح ما سمعه من شيخ البلد فأحس الشيخ بالريبة ولم يرتاح لكلام شيخ البلد، فهو يعلم أنه لكي تُفهم الكتابة السرية تحتاج إلى دليل لتفسير ما استغمض منها وتذكر وقتها الأوراق التى يحتفظ بها رزمك دومًا في طيات ملابسه، ولما سأله شيخ البلد مرة عنها فضحك وأخبره بأنها مجموعة من الأذكار لكي تحفظه من الشرور.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

تنفست العامة الصعداء بعد اعتزال شيخ البلد للناس أما رزمك فقد التزم الحذر وحبس أطماعه مؤقتًا ليظهر العطف على العامة أملًا في أن يصبح خلفًا لصاحبه، وأخرى يقوم بدوره بعد ارتفاع نجمه وظهوره فقد استطاع تدبير الأموال المطلوب سدادها للخزانة السلطانية دون جلبة أو جباية، وعم القاهرة هدوء غريب كالذي يسبق العاصفة وخرج أورخان في النهار ليضرب ضربته!

بعد انتصاف النهار تهدأ الحركة قليلًا في الأسواق ويهجع الناس لبيوتهم هربًا من شمس الهجير، وتظل حراسة دار الحفظخانة مرابطة أمام بابها الكبير في ضيقٍ وضجر ينتظرون انتهاء فترة المناوبة، فاستغل أورخان فرصة تغيير المناوبة وأطلق إحدى قذائف البارود التي تعلم صناعتها فأحدثت دوي عظيم وفرقعة شتت الحراس، فراحوا يستطلعون الأمر ووقف هو كالدَيدَبان حارسًا على بابها فخرج رزمك فوجده واقفًا في مكانه، فعاد إلى الداخل وهو يتوعد حراسها ولم يكد يلتفت إلا وسمع الهسيس وعمت الرائحة المكان وعلم أنه بنجٌ ثم غاب عن الوعى.

خرج أورخان سعيدًا بما غنمه فإذا بأصواتٍ عديدة تناديه وتأمره بالتوقف لكن أحدها جعله يتجمد في مكانه!

أدرك أورخان حجم الورطة التى سقط فيها بعدما ظن أنه تملص من رجال رزمك ليسقط في يد شيخ البلد الذي تشكك في زياراته وسؤاله عن رزمك وأحواله، وما لم يكن في حسبانه هو ظهور طرغود باشا أيضًا.

استطاع طرغود أن يخدع الجميع ويقنعهم بأنه ذهب في طريقة إلا إسلامبول لكنه في حقيقة الأمر لم يغادر القاهرة وظل قابعًا في سكون يتابع كل ما يجري.

ظل عدة ليالٍ عاكفًا على دراسة سجلات البصاصين وملاحظاتهم ولفت نظره مجيء السيد داوود أوغلو في زينة وأُبهة لم يسبقه إليها أحد وظنه في البدء مجرد محتالٍ أراد أن ينتسب إلى السلطان أملًا في تسهيل مصالحه، لكنه منذ أن رآه لم يغب عن خاطره وأحس وكأنه يعرفه، فأسلوبه ليس كبقية التجار بل هو رجلٌ حسيبٌ كريم لا يرضى بالظلم رغم ترفعه عن العامة.

اختفى عن القاهرة وأقنع الجميع بذلك، ثم أرسل بالحمام الزاجل إلى رجاله بعدة أماكن سواء في نيابة حلب، أو إلى إيالة الجزائر مُستطلعًا الأمر حتى تأكد من صدق حدسه.

- أورخان، توقف أيها الأمير.

خرج صوته أجشًا عميقًا وتجمد أورخان في مكانه للحظةٍ ثم التفت إليه وجرى نحو الحبل المعلق، وكاد الحراس أن يضربوه بالنار لكن طرغود باشا منعهم في اللحظة الأخيرة وأمر بمحاصرة الحي المحيط بالقلعة وحبس العامة في البيوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل العشرين

العصيان

(1)

حُوصر الحى المحيط بالقلعة ومُنعت الحركة والتزم الناس بيوتهم، وطاف رجال الوجاقات العثمانية يفتشون البيت تلو الآخر وسرى خبر الحصار فتجمعت العامة في فضولٍ تستطلع الأمر، فمنعهم العسكر واحتشد طلبة الأزهر وهددوا بالخروج مع الأهالي لكنهم فوجئوا بجدية تهديد الباشا الذى صوب مدافع القلعة نحو القاهرة، فانفض الحشد ولم يجرؤ أحدٌ على الخروج واستبدلوا الغضب بالصبر والقنوط.

فشل البحث والتفتيش الذى استغرق حتى قرب المغيب واشتد حنق طرغود باشا فأمر رجاله بإخراج الجميع من بيوتهم وحشدهم صفوفًا متراصة وهتف فيهم:

- أين سيف العدل؟

فلم يرد أحد، فعاد ليقول:

- الآن صار جبانًا ويخشى مواجهتي ويستتر بينكم، إن لم يخرج ليواجه مصيره فسوف أحرق بيوتكم.

عم الصمت على المكان، كان أورخان يجاهد للخروج من المكان الضيق الذى انحشر فيه جسده بعد السقوط لكن قدمه المكسورة لم تسعفه على الوقوف إلى أن تقدم من بين الحشد الصامت شيخٌ أشيب قال في صوتٍ متهدج:

- أنا سيف العدل يا سيدي.

اتقدت عينى طرغود باشا وجز على أسنانه وكاد أن يفتك به لولا أن تقدم فتى نحيف حديث السن رث الثياب ليكرر نفس مقولته، فسكنت الأصوات ثم هتفوا جميعًا بصوتٍ واحد:

- جميعنا سيف العدل.

فرد عليهم طرغود باشا:

- حسنًا إذن، ثم التفت ليأمر رجاله بمحاصرة أهل الحى واقتيادهم للسجن فإذا به يجد السلطان واقفًا.

أحاط السلطان بأخبار ذلك التاجر المعروف صاحب التجارة الواسعة الممتدة شرقًا وغربًا في سلطنته والأحداث الغريبة التى تزامنت مع قدومه إلى مصر لذا ارتأى متابعة الأمر بنفسه، فأشار لرجال الوجاقات لإعطاء الإشارة لطوبجية القلعة بضرب المكان، فإذا بأورخان يندفع من بين الحشد ويهتف:

- مهلك والدي السلطان.

يخرج من بين الحشد مستندًا على سيفه وساقه تنزف ووجهه مُغبرًا فهب إليه رجال الوجاقات وانكفأ على وجهه ثم حاول أن يقوم مرةً أخرى، فأشار لهم السلطان فالتزموا أماكنهم فلما تبينه رغم لحيته التي أطلقها ووجهه المغبر أطلق صيحة دهشة،

- أورخان! ثم استطرد بغضبٍ عارم: أبعد أن ربيتك واعتبرتك ابنًا من ابنائي تأتي لتؤلب العوام ضدنا؟

- أورخان: كلا والدي السلطان، بل لأرفع الحرج عنكم بعدما سقط العدل.

كانت العبارة الأخيرة كفيلة للإطاحة بما بقي من حُلم السلطان فأمر رجاله بتقييده في الحديد وسوقه لسجن القلعة، وانفضت العامة غيرِ مُصدقين لما جرى فالأعمى صار بصيرًا وخاطب السلطان كابن له، وظلوا مختلفين لا يعرفون اتفاقًا وبات جميعهم في غمٍ عظيم.

بكى إدريس بحرقةٍ شديدة على الأمير الصغير الذي رباه والآن سيفقده كما فقد أبيه سابقًا، وراح يشكو للقاضي أصيل فلقي في الطريق منصور فذهبا إليه سويًا فوجداه قد ركبه الهم والحزن، ثم قال والدمع يذرف من عينيه:

- لو آمن أهل القاهرة بقوتهم، لما سكنوا للظلم لحظة، ثم قام وتركهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(2)

انتهت صورة المخطوطة ولم يعلم ثلاثتهم مصير الأمير أورخان فتوجهوا إلى البروفيسور عبدالحق فأخبرهم بأن منصور سار بين العامة يدعو عليهم إن سكنوا للظلم، فعلم البصاصون بأمره فحُبس هو الآخر فزاد غم العامة أكثر وحاول الشيخ مُحمّد وخليل بك التدخل لكن السلطان رفض أى شفاعة، ووبخ خليل بك بعنفٍ شديد وعاتب الشيخ محمد لأنه راح يبحث عن أورخان وأولى به أن يتشفع في منصور.

عمت بعدها شائعة بأن السلطان سوف يعدم كلاهما على الخازوق رغم أن كل ما فكر فيه هو نفيهما، لكن هذه الشائعة انتشرت بقوة فأطلقت غضبة العامة المكبوتة فلم يخرج أحدٌ من بيته وسرت موجة من العصيان، بدأت بطائفة السقائين فامتنعوا عن حمل الماء في قربهم لرش الشوارع وسقاية البيوت، فأتبعتهم طائفة المكارية والفوالة ثم الحمالين وجامعي القمامة فملأت القمامة الشوارع وخاف الناس من أن ينتشر وباء الطاعون مرةً أخرى بعدما شح الماء وتعطلت التجارة، فأمر السلطان بإحضار شيوخ الطوائف فأخبروه بما جرى وأنهم لم يفلحوا في إرجاعهم عن أمرهم هذا فعزلهم جميعًا ولم يكن يعلم أن العصيان امتد إلى الأرياف القريبة من القاهرة فمنعت هى الأخرى أقواتها عن القاهرة، فوجد طرغود باشا أن الأمر بدأ بالخروج عن سيطرتهم وعليه أن يتدخل لإقناع السلطان فقص عليه ما عاينه من أفعال الأمير وفضائله، وأخذ يراجع السلطان حتى ارتضى بأن يعفو عنه ثم نصحه بأن يوليه شياخة البلد فتهدأ الأمور ويكسب قلوب رعيته ويأمن غدر المماليك الذين أعياهم دهائه وشدة بأسه.

فاستحسن السلطان فكرته وأفرج عن الأمير وبهذا يا سادة يا كرام انتهت سيرة الفارس الهمام "أورخان بن طومان باي" بالتمام والكمال وبمرحه المعتاد أنهى كلامه بهذه العبارة لكنه لمح وقدة غامضة سرت في أعين الرجال الثلاثة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(3)

توهجت جذوة الغضب المكبوت الخابية في نفوسهم وقرروا يثأروا من الظلم الحادث ووضعوا خطتهم ثم وضع مؤمن اللمسات الأخيرة عليها، ولم ينتظروا كثيرًا للتنفيذ فقد كانت تفصلهم عدة أيام على الافتتاح الكبير لإحدى مشروعات توفيق عبدالعزيز وهى أفضل فرصة لهم.

تسللوا لواذًا قبل بدء الحفل إلى مكتبه ثم استأذنوا بالدخول فاضطر للترحيب بهم، كانوا متأنقين وابتساماتهم تملأ وجوههم واعتذروا عن الحضور بدون ميعاد مسبق وهنأوه بحرارةٍ ففرح وظن أنه قد ظفر بهم ثم ران صمت على المكان وأخذ نفسًا عميقًا وبتعالٍ شديد عاتبهم:

- سبق أخبرتكم لا تشتروا عداوتي لكن مع الأسف ركبكم غرور الشباب، عمومًا أنتم شباب صغير ومثل أولادي وسأعفو عنكم هذه المرة.

أنهى كلماته وراح يعبث في الأوراق التي أمامه في انتظار إجابتهم لكنهم لم يتكلموا فقط ابتسموا بهدوءٍ وضغط زكريا على أحد التطبيقات في هاتفه الذكى ثم اصطفوا ككتيبة إعدام مُصغرة تستعد لتنفيذ حكمها يتوسطها "وكيل النيابة" وعن يمينه يقف رئيس المباحث ويساره الطبيب الشرعي، وبدأت تلاوة الأحكام، في هذه اللحظة بدأت شاشة العرض الكبيرة بالأسفل في بث ما يدور بالغرفة المغلقة عن طريق كاميرا المراقبة الموجودة بالغرفة.

ظل على هدوئه متكئًا بعضديه على مكتبه لم يحرك ساكنًا و بعدما انتهى وكيل النيابة من تلاوة الاتهامات أخذ يقهقه في هستيريا مصفقًا بانتشاء وقال لهم:

- برافو يا شطار، أنا القانون برئني أنتم من سيحاكمني مرة أخرى، اسمعوني جيدًا، سوف ادفع لكم ما تطلبوه لعلنا ننتهي من هذه المسألة!

لم يتلقَ ردًا فألقى دفتر الشيكات بتأففٍ وعاود النظر للأوراق الموجودة على مكتبه لكنه في حقيقة الأمر ضغط على الزر الموجود أسفل مكتبه لاستدعاء رجاله، ففوجئ بقبضة قاسية كادت أن تحطم فكه وعدة أياد ترفعه من ربطة عنقه وملابسه ثم أطاحت به أرضًا فارتج المكان وأخذ سكرتيره الخاص يدق على الباب و يحاول فتحه بلا جدوى.

شرعوا أسلحتهم لتنفيذ الحكم وكان ما يزال يشعر بالمباغتة، لكنه يسمع جيدًا صوت الطرقات خارج الباب فحاول المماطلة أملًا في كسب بعض الوقت فأخذ يتضرع تارة ويغريهم بالمال تارة أخرى ثم أخذ يتوعدهم، فلما آيس منهم ولول ولطم خديه مستغيثًا بصوتٍ مبحوح مذكرًا إياهم بكونهم رجال قانون ومدركين لخطورة فعلتهم وأنه مجرد شخصٌ حقير لا يستحق منهم أن يضيعوا مستقبلهم المهني بسببه وأقر بأمور كثيرة فعلها أو حرض عليها، في هذه اللحظة بدأ الباب يتهاوى لكن رصاصاتهم كانت أسرع فانطلقت تزغرد في المكان ليرد عليها صوت استغاثته الأخيرة وصوت تحطم الباب مع تدفق أمن المبنى والعديد من الصحفيين والمدعوين وموظفيه الذين غالبًا جاءوا للتشفي، لكن المفاجأة أنهم وجدوه حيًا يُرزق يضحك ويصرخ في هيستيريا:

- تمثيلية سخيفة، ولن تستفيدوا من اعترافاتي لأنها غير قانونية بالمرة.

ابتسم له ثلاثتهم ثم غمز له بهاء أثناء خروجه من الغرفة:

- اضحك حتى تظهر على الشاشة.

ليفاجأ بأنه قد افتُضح أمره بعدما تم بث اعترافاته وأنه محاط بزمرة من مراسلي القنوات الإخبارية يسألوه عن حقيقة الاعترافات!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخميس:9/3/2017 م

10 جمادى الآخر 1438 هـ

خاتمة وتذييل

نُدرة المصادر التى تَسرد تاريخ ثورات حضارات الشرق ومصر وكذلك التاريخ المُقدم لنا أثناء سنوات التعلىم الأساسي، يُعطي الانطباع بأننا شعب خانع مستكين، وبما أن التاريخ يَغلُب عليه منطق الحاكمين فكان مجرد الصدوع بالحق في نظر البعض "ثورة" ([48]) لذا لم يترك لنا من التراث سوى ما يحكي فقط عن فظائع الثورات وما تجره من أهوال وقتل دون طائل كثورة البشمور ، ثم مجموع من السير شعبية التي تكونت على مدى سنوات من خلال ذاكرة الشعوب فتراها ينسحب منها المنطق لكثرة ما فيها من مبالغات.

حكايات وسير الشُطار والعياق تعج بالكثير من صور الظلم الذي يئسوا من إصلاحه فلجأوا لتطبيق رؤيتهم للعدل فسرقوا الغني بحجة إعطاء الفقير، ثم ما خالف ذلك هي أخبار متناثرة في بطون أمهات الكتب يصعب ملاحقتها، فوقع الاختيار على الرواية فهي المساحة التي تستطيع تملأ الفراغ ما بين التاريخ والأسطورة وتوحدهما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المصادر التاريخية التى تم الاستعانة بها:

1- أعمال العصيان والتمرد التي واجهتها الدولة العثمانية في مصر.

مجلة الدراسات التاريخية والحضارية

2- ثقافة الطبقة الوسطي في مصر العثمانية

د.نللى حنا

3- المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية

أ.د محمود عامر - جامعة دمشق

4- الصراع العثماني الفارسي قبيل عهد المماليك

بحث إعداد الدكتور: عبد العظيم نصار

5- آخرة المماليك - ابن زنبل الرمال

تحقيق عبد المنعم عامر وإشراف د. عبد الرحمن الشيخ

6- حكاية مشايخ القرى في العصر العثماني

د- رضا أسعد شريف

7- مصر العثمانية

لجرجي زيدان تحقيق د. محمد حرب

8- مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر

د. إلهام محمد على ذهني

9- حكاية مصر وبلاد السودان في العصر العثمانى

مصطفى كامل عبده

10- تاريخ الموانئ المصرية

د. عبد الحميد حامد سليمان

11 - القاهرة جوامع وحكايات

حمدي أبو جليل

12 – المختار من الخطط المقريزية

المقريزي

13- الانكشاريون في الإمبراطورية العثمانية

إيرينا بيتروسيان - ترجمة مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث - دبى

14- الانكشارية والمجتمع ببايلك قسطنطينة

بحث رسالة دكتوراه للطالبة: جميلة معاشي – الجمهورية الجزائرية

15- الشطار والعياريين د/محمد النجار

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء

مقدمة

الفصل الأول

حال الدنيا

(1)

(2)

(3)

الفصل الثاني

زكريا

(1)

(2)

الفصل الثالث

اليتيم

الفصل الرابع

إسلامبول

(1)

(2)

(3)

الفصل الخامس

مُصارِع الأسود

(1)

(2)

الفصل السادس

الحياة الجديدة

(1)

(2)

الفصل السابع

أمير الأورطة

(1)

(2)

(3)

الفصل الثامن
المرجاوي ولوزة
(1)
(2)
الفصل التاسع
سيزيف
(1)
(2)
(3)
القلعة
الفصل العاشر
القلعة
(1)
(2)
(3)
الفصل الحادي عشر
الخُطي
(1)
(2)
الفصل الثاني عشر
المنفي
(1)
(2)
الفصل الثالث عشر
تدابير القدر!
الفصل الرابع عشر
تدابير القدر (2)
(1)
(2)
(3)
الفصل الخامس عشر
الغضب
(1)
(2)
(3)
الفصل السادس عشر

الزائر الغريب
(1)
(2)
(3)
الفصل السابع عشر
سُلطان
(1)
(2)
(3)
الفصل الثامن عشر
الدهشة
(1)
(2)
(3)
الفصل التاسع عشر
أبو الريش
(1)
(2)
(3)
الفصل العشرين
العصيان
(1)
(2)
(3)
خاتمة وتذييل
المصادر التاريخية التى تم الاستعانة بها:

Notes

[←1]

(1) - منطقة بولاق أبو العلا حاليا بمحافظة القاهرة (2)

[←2]

(2) - حي السيد زينب حاليا.

(3) - السلطان سليم الأول.) [←3]

[←4]

(4) - قديما عند تغيير الحاكم يتم الدعاء للحاكم الجديد بعد خطبة الجمعة وينقش اسمه على عملة البلاد بدلا من الحاكم القديم.

(5) - الموافق يناير لسنة 1517 ميلادية [←5]

(6) - الحُجَّاب وهي كلمة تركية [←6]

[←7]

(7) - تعني الحرس أو العسكر أو ما يطلق عليه كلمة شاويش

[←8]

(8) - نوع غال من القماش يصنع بمدينة الموصل وإليه تنسب كلمة " الموسلين "

[←9]

(9) - معركة موهاج أو موهاكس في 29 أغسطس عام 1526 ودارت مع الجيش المجري أقوي جيوش أوروبا وقضي عليه تماما.

[←10]

(10) - الردن هو كُم الثوب

[←11]

(11) - مجموعات الجنود المتراصة

[←12]

(12) - يقصد السلطان سليم الأول بن بايزيد

[←13]

(13) - محل لتقديم المشروبات والعصائر

[←14]

(14) - صانعي السجاد

[←15]
(15) - مدينة تبريز من أشهر المدن في تاريخ إيران وهي عاصمة محافظة أذربيجان الشرقية.

[←16]

(16) - شعب البوسنة والهرسك أصحاب المأساة المعروفة في نهاية القرن العشرين.

[←17]

(17) - القزان وعاء كبير لصُنع الطعام.

[←18]

(18) - فرقة من الجند.

[←19]

(19) - قميص مصنوع من المعدن لاتقاء أنصال السهام والسيوف.

[←20]

(20) - مطرقة خشبية لها يد قصيرة برأس تشبه حبة الكمثرى يثبت عليها أجزاء معدنية تستخدم في الضرب من المسافات القريبة.

[←21]

(21) - الحاوي هو رجل يُقدم ألعاب خفة اليد ويلاعب الأفاعي

(22) - تمثلان حاليًا دولتي رومانيا ومولدافيا. [←22]

[←23]

(23) - الفداوية أو الحشاشون جماعة دينية لها فرقة عسكرية تخصصت في القتل والاغتيال السياسي بأساليب وطرق مبتكرة.

[←24]

[←25]

(25) - منصب شيخ البلد كان يتولاه أقوى الأمراء المماليك وأكثرهم سطوة، لمساعدة الوالي العثماني المُعين من قبل السلطان العثماني وهو بمثابة منصب رئيس الوزراء في عصرنا الحالي.

[←26]

(26) - يقصد بها جزيرة جاوة بدولة بأندونيسيا حاليًا.

[←27]

(27) - الكلاف هو المسئول عن تربية الماشية وعلفها.

[←28]

(28) - القاب قولي فرقة من فرق الانكشارية تخدم في القصور السلطانية وتتميز بالوسامة وقوة البنيان.

[←29]

(29) - يا خيـر جيش.. يا خيــر عسكـر

أنت الغضنفـــر.. في البحر فاظفر

فـي اليـــد درع.. في اليــد خنجـر

نحـو الأعـادي.. يا خيــر عسكـر

لوكــل شـــــيء.. في البحر ينصّر

نحـن ننـادي.. اللــــــه أكبـــــر

اللـه أكبـــر.. اللــــه أكبـــــر

جيشنـا فليكــن.. دومــــــــاً مظفــر

[←30]

(30) - السباهية هي فرق الخيالة.

(31) - الطوبجية هي فرق المدفعية [←31]

[←32]

(32) - مدينة ساحلية شهيرة بدولة الجزائر تُعرف حتى يومنا هذا بنفس اسمها التاريخي.

[←33]

(33) - حل صمت على المكان

[←34]

(34) - مركز المدينة وأوسطها بداخله المسجد الجامع والسوق الكبير.

[←35]

(35) - البيلك هو ثكنة الجند الانكشارية.

[←36]

(36) - حاليًا تسمي تمبكتو وقد كانت حاضرة المسلمين في هذا الوقت والآن هي إحدى مدن دولة مالي الأفريقية.

[←37]

(37) - حكام دولة مالي.

[←38]

(38) - السودان الجنوبي

[←39]

(39) - القرندلية طائفة من المتصوفة اشتهر عنهم حلق لحاهم و من هنا أتي لفظ القرندلي في العامية المصرية.

[←40]

(40) - هو علم الدواء أو الصيدلة.

[←41]

(41) - هي المرأة المسئولة عن توليد المرأة الحامل.

[←42]

(42) - كنيت مدينة الإسكندرية دوما بالثغر.

[←43]

(43) - مات الخائنون غدرًا بالتتالي الأعرابيان الخائنان غُدرا بيد جانم السيفي كاشف الفيوم والبحيرة عندما أرادا إعلان العصيان على خاير بيك والي مصر فأرسل لهم جانم الذي أمنّهما ثم غدرهما وأعقبهم جانبردى الغزالي حاكم الشام ليُغدر به أثناء القتال أيضا بعد محاولة الاستقلال بالشام، يلحقه في العام التالي خاير بن ملباي بعدما أذله المرض وبموته يطمع الأمير جانم أن يستقل بحكم مصر ويحاول المحتسب بركات بن موسي الشهير باسم "بالزيني بركات" احتواء الأمر لكن الأول يخاف خيانته المعروفة فيغدر به ثم يقُتل أيضا بعدها غدرا مثل من سبقوه وتقفل صفحتهم لكن لا تنتهي الخيانة.

[←44]

(44) - منطقة ميدان القلعة حاليًا وكانت فيما سبق ميدان للرماية ولتدريب المماليك وتنفيذ الأحكام وقره ميدان تعنى الميدان الأسود.

[←45]

(45) - حى المعادي حاليًا وقد كانت المعادى ملتقى القوافل القادمة من طريق السويس نحو مدينة الفسطاط ثم يعبرون منها بالمراكب للجهة الأخرى من النيل لدخول الفسطاط.

[←46]

(46) - يُقصد بها الألعاب النارية التى تنطلق فى السماء محدثة صوت وألوان.

[←47]

(47) - الغدارّة سلاح ناري قديم حجمه يتوسط بين المسدس و البندقية.

[←48]

(48) - ثورة البشمور ، ثورة قام بها أهل مصر زمن الخليفة المأمون بسبب الجبايات والضرائب انضم لها كافة طوائف الشعب سواء أهل البلد أو من اختلط بهم من القبائل العربية، وكانت حركة عارمة عظيمة أرسل لإخمادها الخليفة عدة حملات يقودها أقوي قواده وفشلوا فاضطر أن يأتي بنفسه.